البيت المرواني

عبد الملك بن مروان

٦٥ـ٨٦هـ / ٦٨٥ـ٧٠٥م

هو أبو الوليد[١] **عبد الملك بن مروان** بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي، الخليفة الأموي الفقيه، والمؤسس الثاني للدولة الأموية، والمؤسس الحقيقي للنظام الإداري والسياسي للإدارات الإسلامية في عهد الدولة الأموية.

ولد في المدينة وتفقه في الدين واستلم الحكم بعد أبيه مروان بن الحكم سنة ٦٥هـ/٦٨٤م، واستقام على الملك واحداً وعشرين عاماً، وعجت بأخبار خلافته وأعماله كتب التاريخ العربي الإسلامي، ما كتب منها في العصور السالفة وما دوّن حديثاً. وعلى الرغم من اختلاف بعضها في تقويم تصرفاته فإنها كلها أفاضت بعلم عبد الملك وثقافته وفقهه وأدبه وشعره، حتى إنه كان يعد رابع أربعة فقهاء مشهورين في المدينة هم: سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير، وقبيصة بن ذؤيب، وقال عنه الشعبي: «ماجالست أحداً إلاّ وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك فإني ما ذاكرته حديثاً ولا شعراً إلاّ زادني فيه». كما أن كتب التاريخ أجمعت على حزمه وصرامته في تطبيق ما يؤمن به ومعرفته لطبائع البشر، فقد روى عنه المسعودي، أن بعض جلسائه طلب الخلوة إليه يوماً، فأجابه إلى طلبه بشرط ثلاث خصال: لاتُطر نفسي عندك، أي لا تمدحها؛ فأنا أعلم بها منك، ولا تغتب عندي أحداً فلست أسمع منك، ولا تكذبني فلا رأي لمكذب، فاستأذن الجليس منه وانصرف.

ومما لاشك فيه أن ثقافته الواسعة وتفهمه لأحكام الدين وأعماق قيمه قد ساعدته على توسيع ساحة رؤياه، وإيضاح معالم الطريق الذي عليه أن يسلكه في استكمال بناء الدولة الإسلامية، كما أنه استطاع بثاقب فكره وبعد نظره أن يرسم لنفسه أبعاداً رئيسة ترتكز عليها الدولة الإسلامية ولاتكون متماسكة إلا بها، أولها: بُعد سياسي حربي دعامته الجيش الذي كان عليه أن يتحرك بالكم العددي والاستعدادات الملائمة بحسب ما تمليه سياسة الدولة للحفاظ على كيان الأمة ووحدتها، فقد وصل عبد الملك بن مروان إلى الخلافة، وقد عادت العصبية القبلية تمزق وحدة الأمة العربية، والمطامع الشخصية التي استغلت الخلافات المذهبية والعواطف الشعبية، تُكتل المسلمين فئات وأحزاباً متنافرة، تطالب كلها بالحكم والخلافة لأنها ترى أنها أحق من الأمويين بها، فهناك شيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه في العراق (التوابون، المختار بن أبي عبيد الثقفي وما نجم عنها من الكيسانية) وهناك الموالون لعبد الله بن الزبير رضي الله عنه الذي ثار بالحجاز وبويع بالخلافة ومدّ سلطانه إلى العراق والمشرق، وهناك الخوارج؛ إضافة إلى تمردات فردية ومحلية.

إلى جانب هذا الانقسام الداخلي الخطير، كان الروم البيزنطيون في شمالي بلاد الشام وفي شمالي إفريقيا يتسللون بدسائسهم إلى صفوف سكان البلاد ويثيرون النفوس الطامحة منهم، ويحرضونها على الثورة لتعود السيطرة لهم بعد أن تحررت من عبوديتهم وسلطانهم مستغلين الأوضاع الداخلية.

---

١ - نجدة خماش، عبد الملك بن مروان، موسوعة دار الفكر، ج ١، النسخة الرقمية

عبد الملك بن مروان ٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م

تسلّم عبد الملك بن مروان بن الحكم حكم الدولة الأموية بعهد من أبيه وذلك في عام ٦٥هـ، بيد أنه تسلمها والدولة تعصف بها رياح الفتن والاضطرابات والانقسامات؛ فعبد الله بن الزبير رضي الله عنه يُسيطر على الحجاز والعراق وأجزاء من بلاد المشرق ومصر وغربها، وعبد الملك لا يملك من أمره إلا بلاد الشام؛ ولذلك بدأ في توحيد الدولة تحت إمرته، فكانت أولى المناطق التي أراد أن يستعيد سيطرته عليها: العراق ثم الحجاز.

الأحداث السياسية الداخلية في عهد عبد الملك بن مروان

أولاً: المعارضة الشيعية

- أ - حركة التوابين - معركة عين الوردة سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥ م
- ب - حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي

ثانياً: حركة ابن الزبير

- القضاء على قوة ابن الزبير في العراق تمهيداً لإسقاط حكمه في الحجاز

ثالثاً: الخوارج

- أ - الخوارج الأزارقة
- ب - الخوارج الصفرية
- ج - خوارج اليمامة

رابعاً: حركة ابن الأشعث

حركة التوابين

كانت الكوفة بعد موقعة كربلاء تتحسّس أكثر من غيرها ثقل الذنب ومرارة الندم، باعتبارها طرفاً مباشراً ومسؤولاً في قضية الشهيد الحسين بن علي (رضي الله عنهما). فهي التي ألحّت عليه بالخروج إلى أرض العراق، ثمّ تقاعست في أحرج الظروف عن الالتزام بما وعدت به والوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسها. وإذا كانت الأحداث التي تلاحقت بصورة مفاجئة يُعيد تحرّكه (رضي الله عنه) من الحجاز قد حالت دون القيام بواجبها وتنفيذ مخطّطها المرسوم، فإنّ ذلك لم يكن ليُخفّف عنها عمق المأساة؛ لأنّها افتقدت بمصرعه (رضي الله عنه). الشخصية الأكثر جدارة التي وضعت فيها الشيعة كلّ آمالها وطموحها للوصول إلى الحكم [1].

وحينما تولى عبد الملك بن مروان الحكم بعث إلى عبيد الله بن زياد يقرّه على ما ولاّه عليه أبوه مروان في العراق، وتقدم ابن زياد نحو العراق وهدفه إجلاء ولاة ابن الزبير، ولكنه اضطر إلى أن يغير خطته، فقد ظهر في الميدان أعداء جدد لم يكونوا في حسبان ابن زياد وهم (التوابون). حيث أخذ الشيعة يعقدون الاجتماعات برئاسة سليمان بن صرد الخزاعي لدراسة الموقف، وأسلوب العمل الذي سيتبعونه، وغلب على هذه الاجتماعات موضوع التوبة والغفران، ثم شرعوا في تجييش النامس، وخرج التوابون من معسكرهم في النخيلة في شهر ربيع الأول ٦٥هـ، وهو الموعد الذي حددوه لخروجهم، وكانت المحطة الأولى في مسيرتهم الانتقامية في كربلاء حيث بلغوا قبر الحسين فاسترحموا عليه وبكوا وتابوا عن خذلانهم له، وبعد يوم وليلة من البكاء كان الحماس قد أخذ منهم حق العمق، فقرروا السير إلى الشام لقتال عبيد الله بن زياد باعتباره الرجل الذي أصدر الأمر بقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما .

١ - محمد أمين نجف

١ بعد موت يزيد وقرار عبيد الله بن زياد، أخذ الشيعة في الكوفة استغلال ضم البصرة لابن الزبير وتبعية المدائن أيضاً، وراحوا يعقدون الاجتماعات برئاسة **سليمان ابن صرد الخزاعي** والذي شكّلت مجموعته منظمة سرّية نواتها نحو مائة معارض، ولم تلبث حتّى تحوّلت إلى معارضة شيعية كبرى تحمل اسم (التوّابين).

٢ عَلِمَ التوّابون بقدوم ابن زياد إلى العراق، فرأوا الخروج لقتاله وقتل ابن زياد أخذاً بثأر الحسين بن علي رضي الله عنهما، وكان عددهم في بادئ الأمر ستة عشر ألفاً، فلما جاء وقت العمل الجاد نكصوا وتقاعسوا حتى وصل عددهم إلى أربعة آلاف، وحتى الآلاف الأربعة الذين تجمعوا حول زعيم التوابين سليمان بن صرد تخلّى عنه منهم ألف وبقي معه ثلاثة آلاف فقط. أما جيش الشام فكان عدده ستين ألفاً عليهم عبيد الله بن زياد، أرسلته القيادة ليعيد العراق إلى سلطان الأمويين بعد أن بسط حكمه على الشام، فالتقى بالتوابين في **عين الوردة** من أرض الجزيرة، ودارت معركة غير متكافئة قُتِلَ فيها معظم التوابين وزعيمهم سليمان بن صرد الخزاعي، وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٦٥هـ. وفَرَّ الباقون عائدين إلى **الكوفة** لينضموا إلى المختار الثقفي الذي انفرد بزعامة الشيعة فيها.

حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي

هو المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذَّاب، كان والده الأمير أبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف ابن عقدة الثقفي، أسلم في حياة النبي ﷺ، ولم نعلم له صحبة، استعمله عمر بن الخطاب على جيش، ففزا العراق، وإليه تنسب وقعة جسر أبي عبيد، ونشأ المختار، فكان من كبراء ثقيف، وذوي الرأي، والفصاحة، والشجاعة والدهاء وقلة الدين، وقد قال النبي ﷺ: «يكون في ثقيف كذَّاب ومبير»، مسلم رقم ٢٥٤٥. فكان الكذاب هذا، ادعى أن الوحي يأتيه، وأنه يعلم الغيب، وكان المبير الحجاج، قبحهما الله،سير أعلام النبلاء (٥٣٩/٣)، ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي على مسرح الأحداث بعد موت يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ، وهو من الشخصيات التي حفل بها العصر الأموي، والتي كانت تسعى لها عن دور، وتسعى إلى السلطان بأي ثمن، فتقلب من العداء الشديد لآل البيت على ادعاء حبهم والمطالبة بثأر الحسين. وبالمناسبة هو الذي أشار على عمه سعد بن مسعود الثقفي بالقبض على **الحسن بن علي** وتسليمه إلى معاوية، لينال بذلك الحظوة عنده، ثم حاول الاتصال بعبد الله بن الزبير والانضمام إليه، وشرط عليه شروطاً، منها: أن يكون أول داخل عليه، وألا يقضي الأمور دونه، وإذا ظهر استعان به على أفضل أعماله، وباختصار أراد أن تكون له كلمة في دولته، ولكنه لم يجد تجاوباً من ابن الزبير، فانصرف عنه إلى **الكوفة**، حيث كان الأمر فيها مضطرباً، فأراد أن يصطاد في المياه العكرة، ولم يجد فيها ورقة رابحة سوى الادعاء بالمطالبة بدم الحسين وآل البيت، **وادعى أن لديه تفويضاً بذلك من محمد بن علي بن أبي طالب، الملقب بابن الحنفية**، ولكنه لم يكن صادقاً في ذلك، بل قرر أن يركب تيار الشيعة ليصل إلى هدفه وهو الحكم والسلطان[١].

وقد عبر هو نفسه عن ذلك في حواره مع رجال من رجاله الذين أخلصوا له، وكانوا يظنونه صادقاً في دعوته للثأر لآل البيت، وهو السائب بن مالك الأشعري. فقد قال له المختار عندما ضيق عليه وصعب الخناق واقتربت نهايته: ماذا ترى؟ فقال له السائب: الرأي لك؟ قال: أنا أرى أم الله يرى؟ قال: الله يرى، قال: ويحك أحمق أنت! إنما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير انتزى على الحجاز، ورأيت نجدة انتزى على اليمامة، ومروان على الشام، فلم أكن دون أحد من رجال العرب، فأخذت هذه البلاد، فكنت كأحدهم إلا أني قد طلبت وبالغت في ذلك إلى يومي هذا، فقاتل على حسبك إن لم تكن لك نية، فقال السائب: إنا لله وإنا إليه راجعون. قال السائب ذلك لما تبين له أن المختار صنع كل ما صنع من أجل السلطان وحده، ولذلك يصف الذهبي المختار بالكذب وقلة الدين[٢].

---

١ - ٢ ، د. علي الصلابي، الدولة الأموية، ص ٥٨٣ - ٥٨٤ .

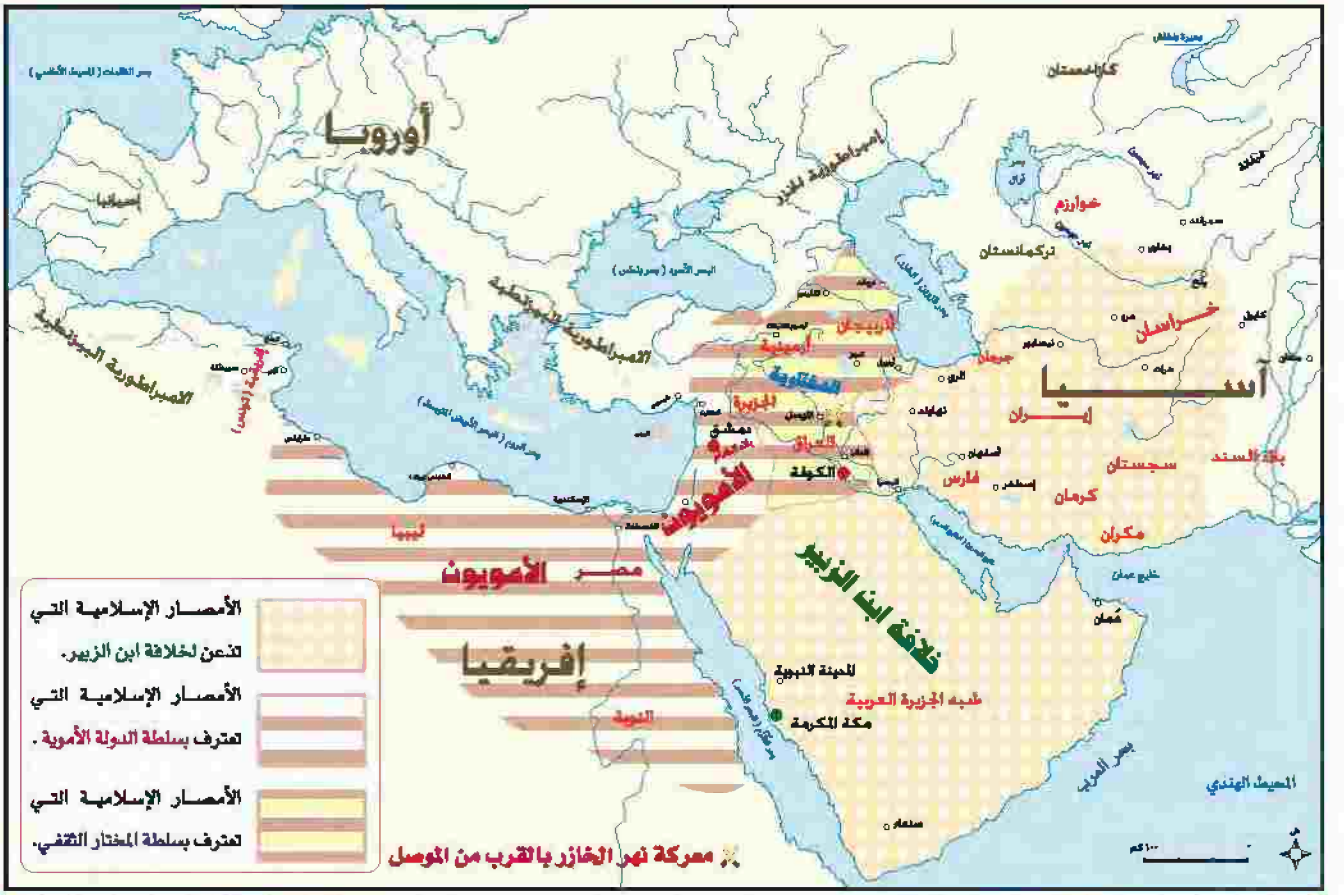

الوضع السياسي العام بعد ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي

ظهر المختار في **الكوفة** في الوقت الذي كان فيه سليمان بن صرد الخزاعي -زعيم التوابين- يستعد للذهاب إلى الشام، لقتال عبيد الله بن زياد، فحاول تثبيط الناس عنه، وقد نجحت دعايته وتجمع حوله نحو ألفين من الشيعة، وبقيت غالبيتهم مع سليمان بن صرد، وكانت نتيجة معركة **عين الوردة** من مصلحة المختار، فقد جاءته مصدقة لتوقعاته، كما أنه انفرد بزعامة الشيعة، ولجأ إليه الفارون من المعركة، فقويت حركته وكثر أتباعه، ثم ازداد مركزه قوة بانضمام **إبراهيم بن الأشتر النخعي** إليه، وهو من زعماء الكوفة، فثار على **عبد الله بن مطيع العدوي، أمير الكوفة، من قبل عبد الله بن الزبير**، فأخرجه منها وأحكم سيطرته عليها. ولكي يثبت دعواه في صحة دعوته في المطالبة بدم الحسين، فقد تتبع قتلته فقتل معظمهم في الكوفة، ثم أعد جيشاً جعل على قيادته إبراهيم بن الأشتر، وأرسله إلى قتال عبيد الله، فالتقى به عند **نهر الخازر بالقرب من الموصل**، وحلت الهزيمة بجيش ابن زياد، الذي خر صريعاً في ميدان المعركة سنة ٦٧هـ. وقد شرع المختار في تتبع قتلة الحسين ومن شهد الوقعة بكربلاء من ناحية ابن زياد، فقتل منهم خلقاً كثيراً، وظفر برءوس كبار منهم، كعمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الجيش الذي قتل الحسين، وشمر بن ذي الجوشن أمير الألف الذي وَلَوا قتل الحسين، وسنان بن أبي أنس، وخولي بن يزيد الأصبحي، وخلق غير هؤلاء. وكان **مقتل عبيد الله بن زياد** في يوم عاشوراء سنة **سبع وستين**، ثم بعث إبراهيم بن الأشتر برأس ابن زياد إلى المختار، وتعاظم نفوذ المختار بعد انتصار جيشه على جيش ابن زياد، **وسيطر على شمالي العراق والجزيرة**، وجعل يولي العمال من قبله على الولايات، ويجبى إليه الخراج، وانضم إليه عدد كبير من الموالي لبغضهم لبني أمية من ناحية، ولأنه أغدق عليهم الأموال من ناحية ثانية. وبدا كما لو أنه أقام دولة خاصة به في العراق بين دولتي ابن الزبير في الحجاز، وعبد الملك بن مروان في الشام .د . الصلابي ، المرجع السابق .

نهاية المختار بن أبي عبيد الثقفي على يد مصعب بن الزبير

كان من المتوقع أن تكون نهاية المختار على يد عبد الملك الذي وتره بقتل ابن زياد أبرز أعوانه، ولكن عبد الملك كان من الدهاء بحيث أدرك أن ابن الزبير، وإن كان قد أسعده ظهور المختار في البداية وقهره لجيش عبد الملك، إلا أنه لن يسمح لنفوذه أن يتسع ويهدد دولته، وأنه لابد أن يتحرك للقضاء عليه، فآثر الانتظار وترك ابن الزبير يواجه المختار، لأن نتيجة المواجهة ستكون في صالحه، فسوف يقضي أحدهما على صاحبه، ومن يبقى، تكون قوته قد ضعفت فيسهل له القضاء عليه، وقد حدث ما توقعه عبد الملك، **فإن المختار** لم يكتف بانتصاره على جيش عبد الملك وبسط نفوذه على شمالي العراق والجزيرة (وأجزاء من أرمينية وأذربيجان) ، بل أخذ يعد نفسه للسير إلى **البصرة** لانتزاعها من **مصعب بن الزبير** الذي أصبح والياً عليها من قبل أخيه **عبد الله** بعد أن بايعه أهلها، وهنا أصبح الصدام محتوماً بين المختار وآل الزبير، **فسار مصعب بن الزبير بنفسه إلى قتال المختار في جيش هائل، فحاصره بالكوفة** وضيق عليه وما زال حتى أمكن الله منه، فقتله واحتزّ رأسه، وأمر بصلب كفّه على باب المسجد، وبعث مصعب برأس المختار مع رجل من الشُّرط على البريد إلى أخيه عبد الله ابن الزبير، فوصل مكة بعد العشاء، فوجد عبد الله يتنفّل، فما زال يصلي حتى أسحر ولم يلتفت إلى البريد الذي جاء بالرأس، فقال: ألقه على باب المسجد، فألقاه ثم جاء فقال: جائزتي يا أمير المؤمنين. فقال: جائزتك الرأس الذي جئت به تأخذه معك إلى العراق، **ثم زالت دولة المختار كأن لم تكن، وكذلك سائر الدول، وفرح المسلمون بزوالها**؛ وذلك لأن الرجل لم يكن في نفسه صادقاً، بل كان كاذباً، وكاهناً، وكان يزعم أن الوحي ينزل عليه على يد جبريل عليه السلام ... د. علي الصلابي، الدولة الأموية، ص ٥٨٦ .

مبرة الآل والأصحاب
الآل والصحابة .. محبة وقرابة
المصاهرات بين آل علي بن أبي طالب
وآل الزبير بن العوام رضي الله عنهما
١٤ مصاهرة بين آل علي وآل الزبير رضي الله عنهما خلال ١٠٠ عام
قصي بن كلاب
خويلد بن أسد بن عبد العزى
عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف
الزبير بن العوّام رضي الله عنه
علي بن أبي طالب رضي الله عنه
١ عبيدة — المنذر — فاطمة
٢ مصعب — جعفر — مليكة — الحسن — الحسن رضي الله عنه
٣ المنذر — عمرو — رقية — الحسن رضي الله عنه
٤ المنذر — محمد — فليح — فاختة — محمد — عبدالله — الحسن — الحسن رضي الله عنه
٥ المنذر — حمزة — أمينة — الحسين — الحسن رضي الله عنه
٦ عبد الله رضي الله عنه — نفيسة (أم الحسن) — الحسن رضي الله عنه
٧ مصعب — سكينة — الحسين رضي الله عنه
٨ مصعب — حمزة — خالدة — الحسين — علي — الحسين رضي الله عنه
٩ عروة — هشام — الزبير — عبيدة — موسى — عمر — علي — الحسين رضي الله عنه
١٠ عروة — عثمان — فاطمة — جعفر — عمر — علي — الحسين رضي الله عنه
١١ المنذر — محمد — عبيدالله — بريكة — إبراهيم — حسين — علي — الحسين رضي الله عنه
١٢ مصعب — مصعب — أمينة — محمد — عبدالله — الحسن — الحسن رضي الله عنه
١٣ مصعب — محمد — صفية — محمد — عون — علي — محمد
١٤ عمرو — الزبير — عمرو — أم عمرو — عبدالله — الحسين — علي — الحسين رضي الله عنه
صحابي
علاقة أبوة وبنوة
علاقة زواج
ملحوظة مهمة : هذه الشجرة تشمل بعض المصاهرات والأنساب لا كلها
قال تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح: ٢٩)
تهدف الشجرة شهدت ونطقت مصادر المسلمين مما يؤكد استمرار العلاقة الحميمة بين الآل والأصحاب وذريتهم عبر الأجيال، فلنحذر من المدسوس في التاريخ
أهم المراجع والمصادر
- العبر لابن قتيبة ٢٢٤
- شجرة طوبى، محمد مهدي الحائري ١٢٠
- جمهرة انساب العرب لابن حزم ٥٣،٥٢،٤٢
- سير السلسلة العطرية لأبي نمر البخاري ٨، ٦٩، ٧٠، ٧٩
- معجم رجال الحديث للخوئي ١٢/ ٧٦
- نسب قريش للزبيري ٢٦،١٩
- الجمهرة لابن حبيب ٥٢
- مستدركات علم الرجال للنمازي ترجمة ٨٢٢٦
- البحار ج٤٦ انساب الطالبين - علي بن محمد العلوي ١٩٥
- الطبقات الكبرى لابن سعد ٥/ ٣١٧
شبكة عبد الله الصالح - قطعة ٦ - شارع احمد الجابري - مشرف ٩١ - هاتف ٢٤٩٠٢٠٣ - ٢٤٥٢٣١ - فاكس ٢٤٩٠٣١٩
ص.ب: ٢٤٤٢٩ الصفاة الرمز البريدي 13115 الكويت - www.almaherah.net / Email: almaherh@gmail.com

ثانياً، حركة عبد الله بن الزبير

أدى زوال المختار من الميدان السياسي إلى انحصار المنافسة على زعامة العالم الإسلامي بين عبد الملك وعبد الله بن الزبير. ويبدو أن الأول لم يكن قادراً على التصدي للزبيريين في العراق والأقاليم الشرقية نظراً لتعرضه لبعض المشكلات الداخلية والخارجية التي تطلّب حلها جهوداً خاصة.

كان **الوضع الداخلي** الهاجس الرئيس للخليفة الأموي، حيث كان البيت الأموي لا يزال منطوياً على بعض خلافاته، وتُحاك فيه المؤامرات. ويبدو أن عبد الملك عندما اتخذ قراره بالتصدي لابن الزبير، وجد نفسه مضطراً لمعالجة بروز عمرو بن سعيد بن العاص كمنافس له على الزعامة الأموية، وقد نجح في القضاء عليه وأعاد اللحمة إلى البيت الأموي. كما أنهى مشكلاته بالحكمة مع حاكم **قرقيسياء** زفر بن الحارث، ونجح في التخلص من نائل الجذامي حاكم **فلسطين** المؤيد لابن الزبير.

أما **الوضع الخارجي** فقد انتهجت الإمبراطورية البيزنطية في عام (٧٠ هـ / ٦٨٩ م) سياسة أشد نشاطاً وفاعلية على حدود الثغور الإسلامية منتهزة فرصة حدوث الاضطرابات داخل الصف الإسلامي، فاضطر عبد الملك أن يعقد معاهدة مع الإمبراطور جستنيان الثاني لضمان هدوء هذه الجبهة، مقابل دفع ضريبة مالية. وبذلك يكون عبد الملك، قد حسم مختلف المشكلات لصالحه وأضحى نظامه من القوة ما يكفي للمراهنة على صعوبة إسقاطه من جهة، والقضاء على حركة ابن الزبير من جهة أخرى.

وأدرك الخليفة الأموي **أن قوة ابن الزبير تكمن في العراق** وأن القضاء عليه في هذا الإقليم سيؤدي حتماً إلى إسقاط النظام الزبيري بكامله لأن عوامل الصمود في الحجاز تكون قد فقدت الكثير من دعائمها، لذلك خرج على رأس جيش كبير إلى العراق، في حين تحرك مصعب من الكوفة باتجاه الشمال للتصدي له.

وانتهج عبد الملك، في غضون ذلك، خطة ذكية لإضعاف قوة خصمه، فكاتب زعماء العراق في جيشه يستميلهم للانضمام إليه، كما كاتبه هؤلاء يدعوه إليهم. وقد علم مصعب بهذه المراسلات، إلا أنه لم يتخذ بحقهم أي إجراء. ويبدو أنه لم يشأ إحداث شرخ في صفوفه، وهو على أهبة الاستعداد لدخول معركة. إلا أنه أظهر نفسه قائداً قصير النظر بفعل أن الخيانة أثّرت على قوته حين تخلّى هؤلاء الزعماء عنه وانضموا إلى خصمه مما كان سبباً من أسباب خسارته.

ومهما يكن من أمر، فقد التحم الجيشان على **نهر الدجيل عند دير الجاثليق بمسكن** في (شهر جمادى الآخر عام ٧٢ هـ / شهر تشرين الأول عام ٦٩١ م)، وأسفر اللقاء بينهما عن انتصار واضح للجيش الأموي وقُتل مصعب في المعركة، ودخل عبد الملك الكوفة على إثر هذا الانتصار.

لم يضع عبد الملك فرصة قطف ثمار انتصاره، فقد **أسرع بإرسال جيش إلى الحجاز بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي ليوجه إلى عبد الله بن الزبير الضربة القاضية**. حاصر الحجاج **مكة**، وشدد على ابن الزبير الذي أضحى في موقف حرج بفعل انفضاض أتباعه من حوله نتيجة منح الحجاج الأمان لهم.

وبالرغم من ذلك، لم تخن عبد الله شجاعته، حتى في هذه اللحظة الأخيرة من حياته، واضعاً النهاية لأخطر حركة واجهت الدولة الأموية. وكان ذلك في (السابع عشر من شهر جمادى الأولى عام ٧٣ هـ / شهر أيلول عام ٦٩٢ م). **وبهذا انتهت خلافة عبد الله بن الزبير التي استمرت تسع سنوات تقريباً**. وبوفاته، وخضوع الحجاز لعبد الملك بن مروان، توحّد العالم الإسلامي من جديد تحت زعامة هذا الأخير الذي أضحى الخليفة الشرعي الوحيد للمسلمين. د. طقوش، تاريخ الدولة الأموية، ص ٧٩ - ٨٠.

١ لم يشأ **عبد الملك** أن يسير للعراق إلا بعد أن يوطد دعائم حكمه في الشام، فقضى هذه السنين في تحقيق هذا الهدف، فقد حل مشكلاته مع **زفر بن الحارث الكلابي** الذي كان معتصماً في **قرقيسيا**، مهدداً بذلك إقليم الجزيرة كله، وقد عالج عبد الملك مشكلة زفر بالحكمة والسياسة، واصطلح معه، وأنهى بذلك مسألة قرقيسيا التي استمرت حوالي سبع سنين كالشوكة في جنب دولته .

٢ سارع **عبد الملك بن مروان** إلى **العراق بجيشه**، وجعل على **مقدمته** أخاه محمد بن مروان، **ونزل بمسكن**، وكان **مصعب بن الزبير** قد علم بمسيره، ونزل هو بمسكن أيضاً، **مقدمته** إبراهيم بن الأشتر، وأخذ عبد الملك يكاتب زعماء أهل العراق من جيش مصعب يعدهم ويمنيهم .

٣ **مسكن:** وهو موضع قريب من أوانا على نهر دُجيل عند دير الجثاليق به كانت الوقعة بين عبد الملك بن مروان ومصعب ابن الزبير في سنة ٧٢ فقتل مصعب وقبره هناك معروف. الحموي، معجم البلدان .

قالت سكينة بنت الحسين في رثاء زوجها مصعب:

فإن تقتلوه تقتلوا الماجد الذي
يرى الموت إلا بالسيوف حراماً

وقبلك ما خاض الحسين منية
إلى القوم حتى أوردوه حماماً

٤ كان انتصار **عبد الملك بن مروان** على مصعب بن الزبير في معركة **دير الجاثليق** إيذاناً بانتهاء دولة عبد الله بن الزبير؛ فقد استقرت له الأمور في جميع الأمصار الإسلامية، **وانحصرت دولة ابن الزبير في الحجاز**، ولم يكن في استطاعته الصمود، لافتقاره إلى المال والرجال، كما أن مقتل أخيه مصعب قد فت في عضده وأصابه الإحباط، ولكنه لم يلق رايته، وظل يقاوم حتى النهاية.. لم يضيع عبد الملك بن مروان وقتاً بعد انتصاره على مصعب، وقرر أن يقضي نهائياً على دولة ابن الزبير ووقع الخيار لقيادة الجيش للقضاء على ابن الزبير على **الحجاج بن يوسف الثقفي**، وتوجه بجيشه إلى الحجاز، **واستقر بالطائف**، وبدأ يرسل بعض الفرق العسكرية إلى مكة، وكان ابن الزبير يرسل إليه بمثلها فيقتتلون وتعود كل فرقة إلى معسكرها.

٥ في محاولة لإنهاك ابن الزبير قام الحجاج بفرض حصار اقتصادي على مكة، ويروي ابن حزم أن عبد الملك بن مروان كان يسهم في فرض هذا الحصار؛ فقد أوكل إلى خالد بن ربيعة مهمة قطع الميرة عن ابن الزبير وأهل مكة، وقد أثر هذا الحصار على ابن الزبير وأصابت الناس مجاعة شديدة حتى إن ابن الزبير اضطر إلى ذبح فرسه ليطعم أصحابه، وفي الوقت نفسه كانت العير تحمل إلى أهل الشام من عند عبد الملك، السويق، والكمك والدقيق، وقد ترتب على تردي الأحوال داخل مكة، أن بدأ التخاذل يدب بين أنصار ابن الزبير، وبدأوا ينسحبون واحداً تلو الآخر، ومما شجع على تخاذل هؤلاء إعطاء الحجاج الأمان لكل من كف عن القتال وانسحب من جيش ابن الزبير. د . علي الصلابي، الدولة الأموية.

٦ أراد **الحجاج** بن يوسف الثقفي أن ينهي أمر ابن الزبير فكتب إلى عبد الملك ابن مروان يطلب منه الإذن بقتاله ومناجزته، فأجابه عبد الملك بقوله: افعل ما ترى.

وهذه الإجابة تحمل في مضمونها الموافقة على طلب الحجاج المتحفز لقتال ابن الزبير، وتوجه الحجاج بن يوسف بجميع جيشه إلى **مكة** ونصب المنجنيق على جبالها، وبدأ يضرب ابن الزبير داخل الحرم ضرباً متواصلاً، وفي الوقت نفسه كانت بقية جيشه يقاتلون البقية الباقية مع ابن الزبير.

٧ **وبعد قتال شديد، وبسالة قوية قُتل عبد الله بن الزبير يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة وله ثلاث وسبعون سنة، وتولى قتله رجل من مراد.**

ثالثاً: القضاء على حركات الخوارج

كان أول موقف سياسي منظم اتخذه الخوارج في العهد الأموي، هو التحالف مع عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما في مكة المكرمة.

بيد أن الخوارج اكتشفوا أن ابن الزبير مخالفٌ لهم في الفكر؛ فغادروا مكة، وانقسموا على إثر ذلك إلى عدة فرق نتيجةً لوقوعهم في صراعات، واضطرابات داخلية تعود في جوهرها إلى نواح سياسية، وعقدية وقبلية في آن واحد، فجاءت فرقها خلال هذه الفترة على النحو التالي:

أ - الخوارج الأزارقة

١ – بعد مقتل مصعب بن الزبير وسيادة عبد الملك بن مروان على العراق، احتل الأزارقة الأهواز وأخذوا يهددون **البصرة**، والمناطق المجاورة لها.

٢ – عبد الملك يُعين المهلب بن أبي صفرة لقتال الأزارقة.

٣ – بعد ثلاث سنوات من الصراع المرير، انتصر المهلب بن أبي صفرة على الأزارقة بمساندة والٍ صلب وهو الحجاج بن يوسف.

ب - الخوارج الصفرية

١ – إذا كان الأزارقة هددوا البصرة؛ فإن الخوارج الصفرية هددوا **الكوفة**؛ منطلقين من الموصل في عام ٧٦ هـ حيث احتلوا **الكوفة والمدائن وخانقين** بعد أن تغلبوا على الجيوش الأموية.

٢ – رأى الحجاج التصدي لقوة الخوارج الصفرية، فخاض **معركة الدجيل** سنة ٧٧ هـ.

٣ – بعد انكسار الخوارج بقيادة شبيب بن يزيد بن نعيم، انسحبوا عبر جسر من القوارب أقاموه على النهر، وكان هو أول الغارقين فيه، فخلفه البطين الذي تم إلقاء القبض عليه وقتله الحجاج الثقفي. فطلب الصفرية عندئذ الأمان فمنحوا إياه.

ج - خوارج اليمامة

١ – هاجم خوارج اليمامة بقيادة نجدة بن عامر الحنفي **البحرين** سنة ٦٥ هـ ومناطق أخرى على الشريط الساحلي لإقليم البحرين؛ مستغلين حالة الفوضى والاضطراب السائدة آنذاك، وهددوا سلطة ابن الزبير نفسه في الحجاز .

٢ – عندما دخل العراق تحت حوزة عبد الملك وجه لهم قوة اصطدمت معهم في موضع **المشقَّر** في البحرين، فدارت الدائرة عليهم، وقُتل أبو فديك واضطر أتباعه إلى التسليم، وبهذا الشكل سقطت الخوارج النجدية، في اليمامة والبحرين بحيث لم تقم لهم قائمة بعد ذلك .

قال أبو عبيد البكري في معجم ما استعجم في أسماء البلاد والمواضع:

المُشَقَّر بضمّ أوّله، وفتح ثانيه، بعده قاف مفتوحة مشددة، وراء مهملة: قُصِرَ بالبَحْرَيْن. وقيل: هي مدينة هَجَر. وبَنَى المُشَقَّرَ معاويةُ بن الحارث بن معاوية الملك الكِنْديّ، وكانت منازلُهم ضَرِيَّة، فانْتَقَلَ أبوه الحارث إلى الفَرْع، ثم بَنَى ابنُهُ المُشَقَّر، قال امرؤُ القَيْس:

أَوِ المُكْرَعَات من نخيل ابن يَامِنٍ ... نَوَيْنَ الصَّفَا اللاتي يَلِينَ المُشَقَّرا

ابن يامن رجلٌ من (أهل) هَجَر، لا يُدْرَى ممّن هو؟ قال ابن الكَلْبيّ: هو يَهوديّ من أهل خَيْبَر. وقال أبو عُبيدة: هو مَلاّحٌ من أهل البَحْرَيْن. وقال ابن الأعرابي: المُشَقَّر: مدينة عظيمة قديمة، في وسطها قلعة، على قارّة تُسَمَّى عَطّانَة، وهي أعْلاها بيْرٌ تَثْقُب القارة، حتى تَنْتَهِيَ إلى الأرض، وتذهب في الأرض، وماءُ هَجَر يتحلَّبُ إلى هذه البِئْر في زيادتها، وتَحَلُّبُها: نُقْصانُها.

رابعاً: حركة عبد الرحمن بن الأشعث

هـو عبـد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي من أشـراف الكوفة والقادة الشجعان. اشترك مع مصعـب بن الزبير في قتال المختار بن أبـي عبيد الثقفي، وقُتل والده في المعركة التي دارت بين الفريقين في حـروراء (موضـع بظاهر الكوفة تنسب إليه الحرورية من الخوارج). وأرسله بشر بن مروان والي الكوفة سنة ٧٢هـ علـى رأس خمسـة آلاف مقاتل مدداً للمهلب بن أبـي صفرة في حرب **الخـوارج الأزارقة**، وأمره بعد الانتهـاء مـن غزاتـه أن ينصـرف إلى الريّ. **وفـي سنة ٧٦هـ أمر الحجـاج بن يوسـف الثقفي ابن الأشعث أن يخرج في طلب شبيب الخارجي وأصحابه** فانتخب ستة آلاف من الفرسان وأخرج ستمئة من قومه من كندة وحضرموت، ولكنه عجز عن القضاء على شبيب.

وفـي سنـة ٨٠هـ وجه الحجاج ابـن الأشعث على رأس أربعين ألف مقاتل مـن **الكوفة والبصرة** لحـرب **رُتبيـل فـي سجستان** بعـد امتناعه عـن دفع الخـراج، وإيقاعـه بالمسلمـين الذين كانـوا مع والي **سجستـان** عبيـد الله بن أبي بَكْرَة. ويقال إن عم عبد الرحمـن إسماعيل بن الأشعث نصح الحجاج ألا يرسل عبـد الرحمن على رأس ذلك الجيش لأنه يخاف خلافـه، فقال الحجاج: «... هو لي أهيَب، وَفي أرغب من أن يخالف أمري أو يخرج عن طاعتي». وأمضاه على ذلك الجيش، فخرج بهم حتى قدم **سجستان**، فجمع أهلها وطلـب منهم تجهيز أنفسهم، والانضمام إلى جيشه لملاقاة عدوهم، وبلغ ذلك **رتبيل**، فكتب إلى ابن الأشعث يعتـذر إليه ممـا أصاب المسلمين، ويخـبره أنه كان لذلك كارهاً، وأنهـم ألجؤوه إلى قتالهـم، ويسأله الصلح، ويعرضـ عليـه أن يقبل منه الخراج، فلم يجبه ابن الأشعـث ولم يقبل عرضه، وأراد أن يبتدع خطة جديدة في القتـال تخالف الخطط التي سـار عليها أسلافه في غزواتهم السريعة وأن يكـون فتحه للمنطقة فتحاً مكيناً، ثابت الأركان تستقر فيه هيبة الدولة، وتدخل البلاد المفتوحة نهائياً في عداد البلاد الطائعة، فكان يضم إليه البـلاد منطقة منطقة، ويسيطـر عليها سيطرة أكيدة ويضع حاميات عسكريـة في القلاع والأماكن الخطيرة التـي كان يهددها الأعـداء، وكلما سقطت في يده منطقة بعث إليها بعامل، وبعـث معه الأعوان، ونظم البريد بينهـا وبـين مركز قيادته، حتى يضمن استتبـاب الأمر له فيها، واستطاع على هذا النحـو أن يضم إليه جزءاً كبـيراً مـن البلاد. ثم توقـف مدة حتى يعتاد جنده الحياة فـي تلك البلاد الغربية الوعـرة ويعرفوا مسالكها، **وكتـب إلى الحجـاج يعلمـه بما فعل. فاتهمه الحجـاج بالضعف والعجز وأجابـه** «إن كتابك كتاب امـرئ يحـب الهدنة ويستريح إلى الموادعة، قـد صانَعَ عدواً قليلاً ذليلاً، فامض لمـا أمرتك به من الوغول في أرضهم، والهدم لحصونهم وقتل مقاتلتهم، وإلا فأخوك إسحاق بن محمد أمير الناس».

استشار ابن الأشعث من معه، فلم يروا رأي الحجاج، واتفقوا على نبذ طاعته، وبايعوا عبد الرحمن على مخالفة الحجاج فصالح ابن الأشعث رُتبيل، وأقام عمالاً له في أهم مدن سجستان وعاد بجيشه سنة ٨١هـ إلى العراق، فكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره الخبر ويسأله أن يمدّه بالمقاتلة. **وتوجه الحجاج إلى البصرة حيث التقاه ابن الأشعث على نهر الدجيل[١] في الأهواز**، وهزم الحجاج أول الأمر وتراجع حتى نزل الزاوية، وخلّى البصرة لأهل العراق، ثم لم يلبث أن انتصر على ابن الأشعث في **معركة «الزاوية»** وتمكن من دخول البصرة ثانية، في حين توجه ابن الأشعث إلى الكوفة واستطاع أن يدخلها ويستولي على بيت المال فيها. فلما بلغ الخبر الحجاج توجه بجنده يريد الكوفة وعسكر بدير قُرّة، وانضم إلى ابن الأشعث أهل الكوفة والبصرة والقرّاء وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم فكانوا مئة ألف ممن يأخذون العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم. **وبلغ ذلك عبد الملك، فأرسل إلى الحجاج مدداً من أشراف أهل الشام والجزيرة في سبعين ألفاً، ودامت الحرب بين الطرفين مئة وثلاثة أيام، وانتهت بهزيمة ابن الأشعث في معركة «دير الجماجم» سنة ٨٣هـ**، ثم هزيمته الفاصلة في «مسكن» في العام نفسه، وتراجع ابن الأشعث إلى السوس، ثم كرمان، حتى وصل إلى كابل مع رجاله فأكرمهم رُتبيل واستبقاهم عنده. إلا أن جماعة من أهل العراق لحقوا بابن الأشعث وأقنعوه بالخروج معهم والعودة إلى القتال، فوافقهم واستولى على بعض المواقع في **خراسان**. ولما بلغ هراة أحسَّ أنه لن يستطيع الاعتماد عليهم وأنهم سيخذلونه، فقرر الالتجاء ثانية إلى رتبيل إلا أن الحجاج هدد رُتبيل، بغزو بلاده إن لم يسلّمه ابن الأشعث، ووافق رتبيل شريطة ألاّ تغزى بلاده عشر سنين، وأن يؤدي بعد هذه السنين العشر مئة ألف درهم في كل سنة.

أدرك ابن الأشعث أنه سيُسلَّم إلى عمارة بن تميم اللخمي قائد جيش الحجاج، فتحيّن غفلة من الحرس وألقى بنفسه من فوق القصر فمات واحتز جند رتبيل رأسه وأرسلوه إلى الحجاج سنة ٨٥هـ، وانتهت بموته ثورة كانت من أقسى الأزمات التي واجهتها الدولة الأموية، وتعرض فيها مركز الحجاج لامتحان عسير خرج منه منتصراً[٢].

---

١ - **دُجَيل**: اسم نهر في موضعين أحدهما مخرجه من أعلى بغداد بين تكريت ...، و دجيل الآخر: نهر بالأهواز حفره أردشير بن بابك أحد ملوك الفرس؛ وقال حمزة: كان اسمه في أيام الفرس ديلداكودك ومعناه دجلة الصغيرة فعرّب على دُجَيل، ومخرجه من أرض أصبهان ومصبه في بحر فارس قرب عَبّادان، وكانت عند دجيل هذا وقائع للخوارج، وفيه غرق شبيب الخارجي. الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢١٣ .

٢ - نجدة خماش، الموسوعة العربية الرقمية .

الموقف العام بين المسلمين وحاكم كابل « رتبيل » .

عبد الملك بن مروان يكلف الحجاج بن يوسف بإعداد جيشاً كبيراً في عام ٨٠ هـ، لمواجهة ملك كابل، فانتدب الحجاج لهذه المهمة القائد عبد الرحمن بن الأشعث ، وتشير الأسهم الخضراء على الخارطة بمسير الجيش الإسلامي إلى كابل.

حاكم كابل ينسحب من ملاقاة الجيش الإسلامي، ويلجأ إلى المناطق الجبلية الوعرة ، مما أربك حسابات ابن الأشعث الذي رأى عدم التوغل في المناطق الوعرة، واكتفى بانتصاراته الجزئية المحدودة ، وانتهى قرار ابن الأشعث بتجميد العمليات العسكرية لمدة سنة كاملة، والتراجع إلى بست « **بستك** » .

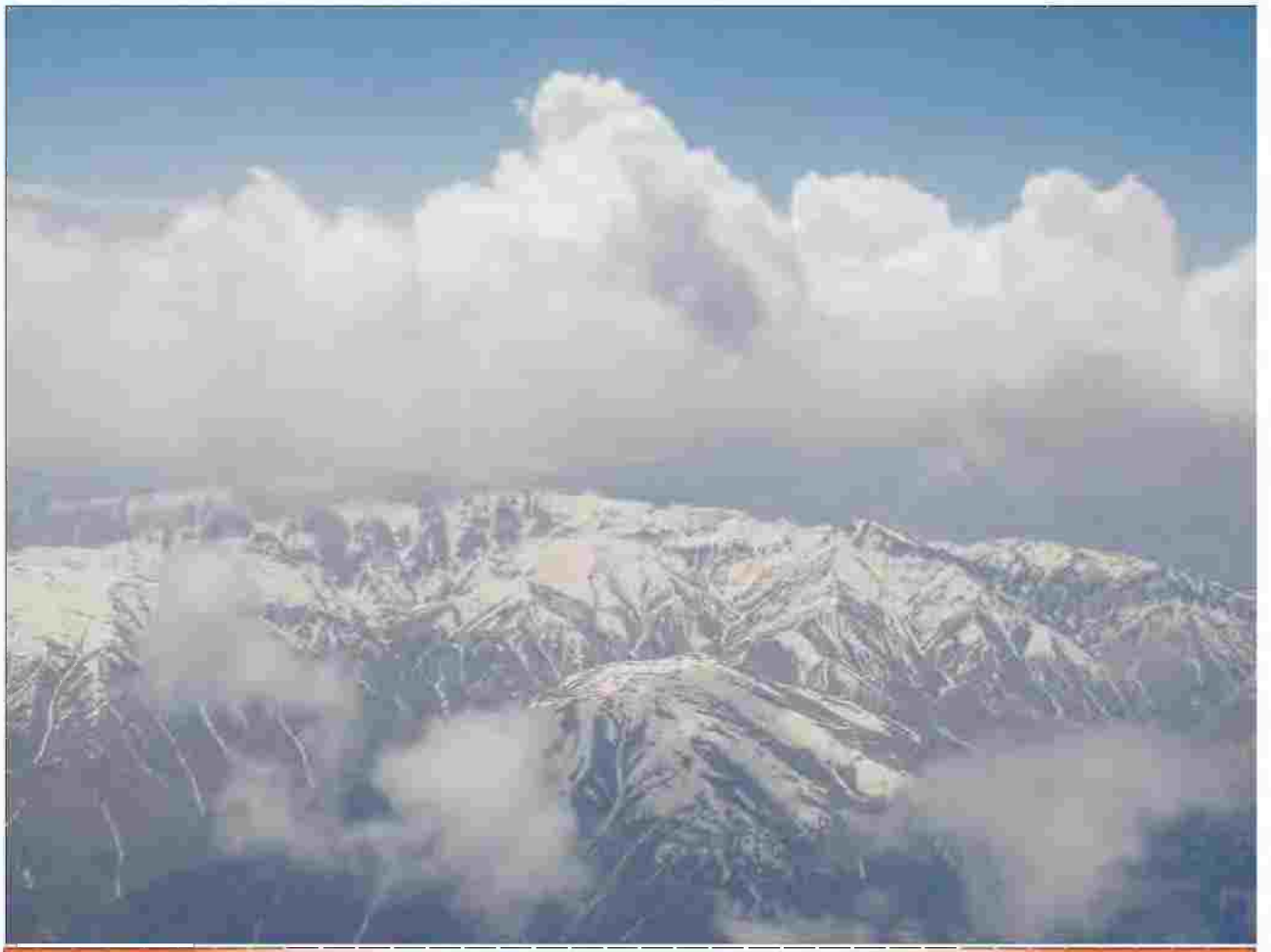

جبال هندوكوش في أفغانستان وقفت سداً منيعاً أمام تقدم قوات عبد الرحمن بن الأشعث

لم يستجيب الحجاج لقرار ابن الأشعث بالتوقف عن المضي قدماً في ملاقاة جيش " رتبيل " بل اتهم ابن الأشعث بالعجز والضعف والخور؛ لذلك هدده الحجاج بعزله إذا خالف أمره.

شعر ابن الأشعث بالإهانة في مخاطبة الحجاج له بهذا الأسلوب المقيت؛ مما أثار أتباعه الذين رأوا في هذه السياسة الخرقاء مؤامرة كبرى ضدهم دون عودتهم إلى أرض العراق، فكان الموقف في " بستك " أقرب إلى التشنج، فقام ابن الأشعث بالضرب على الوتر الديني لإثارة الحماس في أتباعه ضد الحجاج، فقام ابن الأشعث بعقد هدنة مع " رتبيل " ليكون أكثر حرية في التصرف، وليؤمن خط الرجعة له .

★ ★ ★

قال أبو عبيد البكري في معجم ما استعجم في أسماء البلاد والمواضع:

دَيرَ الجَمَاجِم جمع جُمْجُمَة. سُمِّي بوقعة إياد على أعاجم كسرى، بشاطىء الفُرَات الغربي؛ قتلت جيشه، فلم يُفلت منهم إلاّ الشريد، وجمعوا جماجمهم، فجعلوها كالكَوم، فسمي ذلك المكان دير الجماجم؛ قاله ابن شبّة؛ زاد الهمْداني أن رئيس إياد يومئذ بلالٌ الرُّمّاحُ الإياديّ.

وقال أبو الفرج: هو دير بظاهر الكوفة، على طريق البَرّ الذي سلك إلى البصرة؛ وفيه كانت الوقعة بين الحجّاج بن يوسف، وبين عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث.

وذلك أن ابن الأشعث لما رأى كثرة من معه من الجيش بالبصرة، وقد نازله الحجّاج بها، خرج يريد الكوفة، ورأى أن أهلها أطوع له من أهل البصرة، ليضمهم الحجّاج، ولأنه يجد بها من عشائره ومواليه أنصاراً كثيرة. فسار إليها، وسايره الحجاج، فنزل ابن الأشعث دير الجماجم، ونزل الحجاج بإزائه بدير قُرّة، ووقعت الحرب بينهما، ثم انهزم ابن الأشعث، فعاد إلى البصرة.

وقد ذكرت الشعراء دير الجماجم كثيراً؛ قال جرير يهجو الفرزدق:

ولم تَشْهَد الجَوْنين والشِّعْب ذا الصفا
وشَدّاتِ قيسٍ يومَ دير الجماجِمِ

بعد أن حقق ابن الأشعث عدداً من الانتصارات غرّهُ ذلك، وأعلن العصيان، وخلع طاعة الخليفة، وكان في نفسه عجب وخيلاء واعتداد كريه، وبدلاً من أن يكمل المهمة المنوط بها عاد ثائراً على الدولة الأموية مدفوعاً بطموحه الشخصي وتطلعه إلى الرئاسة والسلطان.

ووجد في أهل العراق ميلاً إلى الثورة والتمرد على الحجاج، فتلاقت الرغبتان في شخصه، وآزره عدد من كبار التابعين اغتروا بدعوته، مستحلّين قتال الحجاج بسبب ما نُسب إليه من أعمال وأفعال، وحالف النصر ابن الأشعث في جولاته الأولى مع الحجاج، واضطرب أمر العراق وسقطت البصرة في أيدي الثوار، غير أن الحجاج نجح في أن يسترد أنفاسه، وجاء المدد من دمشق وواصل قتاله ضد ابن الأشعث، ودارت معارك طاحنة حسمها الحجاج لصالحه، وتمكن من سحق عدوه في معركة **دير الجماجم** سنة (٨٣ هـ = ٧٠٢م)، والقضاء على فتنته . أحمد تمام.

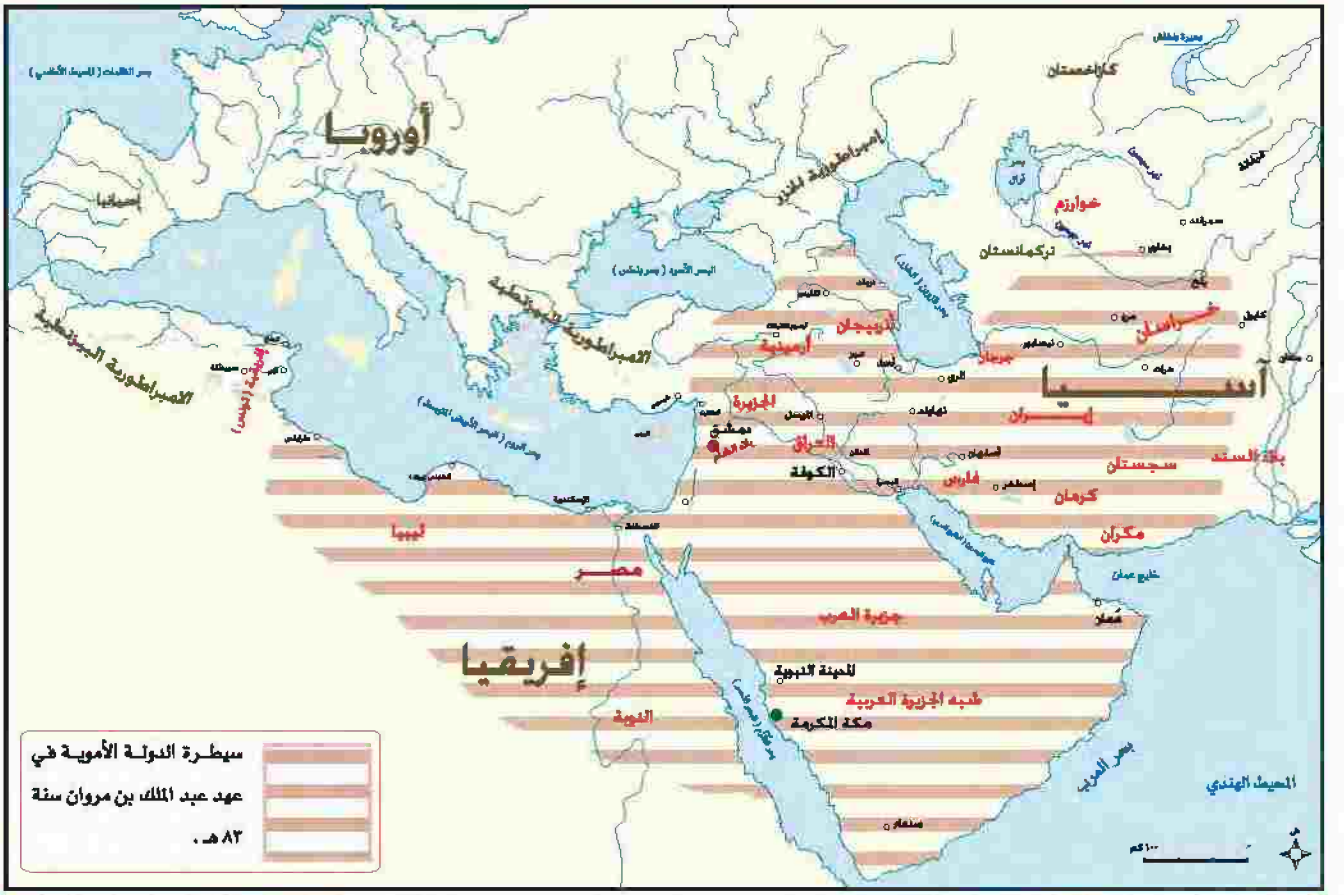

الوضع السياسي العام للدولة الأموية بعد القضاء على الدولة الزبيرية و الحركة المختارية

شهد عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان حركات أخرى معادية لحكمه؛ لكنها كانت محدودة النتائج ولم تشكل خطراً جدياً على مصير الخلافة، ولم تترك أثراً على المجتمع الإسلامي آنذاك، أثارتها قساوة الحجاج وسياسته الاقتصادية، نذكر منها: حركة عبد الله بن الجارود، وخروج قبائل الأزد في عمان .

وهكذا ثابر عبد الملك، وجاهد لتوطيد دعائم الدولة الإسلامية تحت قيادته، ونجح في ذلك نجاحاً فائقاً، ومن هنا استحق عن جدارة لقب موحد الدولة الإسلامية أو المؤسس الثاني لدولة الخلافة الأموية بعد معاوية مؤسسها الأول .

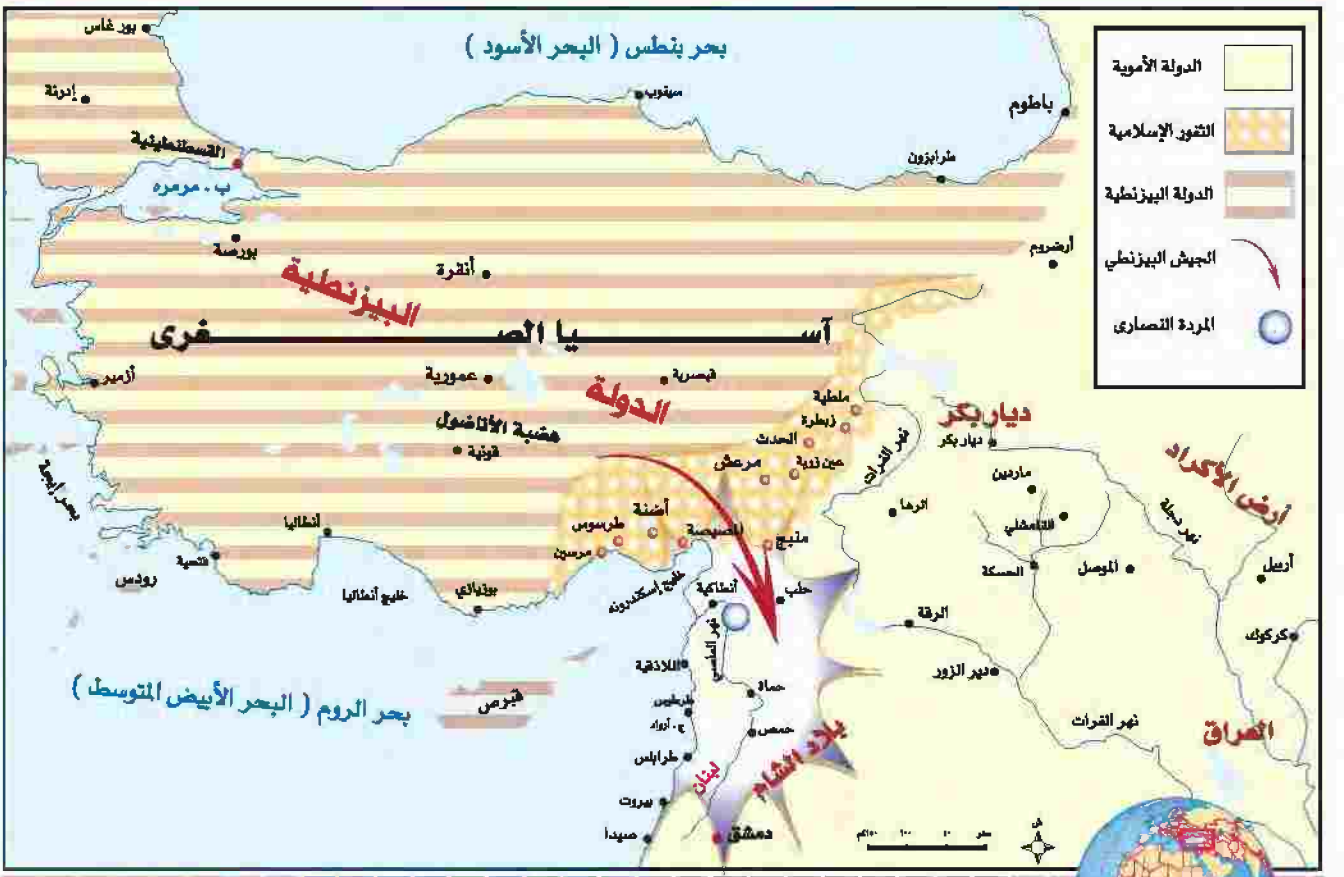

العلاقات الأموية البيزنطية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان

فقد المسلمون بعض قوتهم أمام الروم البيزنطيين في عهد الاضطرابات الداخلية التي عصفت بدولتهم، فانتهز الإمبراطور البيزنطي **جستنيان الثاني** هذه الفرصة ونقض المعاهدة التي سبق وأبرمها البيزنطيون مع المسلمين. وساق جيوشه لقتالهم، فاجتاح بلاد الشام في عام (٧٠هـ/٦٨٩م). في هذه الأثناء وقع الطرف الشرقي للإمبروطورية البيزنطية حادث بالغ الأهمية في تطوير العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين. ففي الحديث عن الشواتي والصوائف التي كان يقوم بها المسلمون ضد الدولة البيزنطية، تحدثنا المصادر عن وجود جماعات من **المردة النصارى** في جبال أمانوس وقد ألفوا جيشاً واتخذت منهم السلطات البيزنطية سياجاً في هذه المنطقة .

كان المردة، بحكم موقعهم الجغرافي ووضعهم السياسي، يحمون الدولة البيزنطية ، من هجمات المسلمين ويدافعون عن معاقلهم الجبلية المنيعة ضد أي اعتداء خارجي وكثيراً ما توغلوا جنوباً حتى وصلوا إلى جبال لبنان. وقد ضايقوا المسلمين فعلاً بما كانوا يشنونه من غارات مستمرة على المناطق المجاورة، خاصة المناطق الساحلية، بتحريض من البيزنطيين، فاضطر **عبد الملك** إلى استرضائهم تفادياً للحرب في هذه المنطقة من جهة، وللتفرغ للمشكلات الداخلية التي استجدت في العالم الإسلامي من جهة أخرى، فعقد مع الإمبراطور البيزنطي جستنيان الثاني

الأمانوس: سلسلة جبال تركية شرقي خليج الإسكندرونة، تشرف على سهل قيليقية هي اليوم فيزيل داغ، وارتفاعها ٢،٢٦٠ متراً وتكثر بها الغابات، وتستخرج منها الأخشاب.

كنيسة القديس نيقولاس الأرثوذكسية بإقليم الإسكندرونة

المعاهدة في هذا العام (٧٠هـ/٦٨٩م) تعهد الخليفة بمقتضاها أن :

١- يدفع مالاً معيناً للإمبراطور البيزنطي يبلغ سنوياً ثلاثمائة وخمس وستين ألف قطعة ذهبية، وثلاثمائة وخمسة وستين عبداً وثلاثمائة وخمسة وستين جواداً أصيلاً مقابل، وقف الغارات البيزنطية، على الأراضي الإسلامية. ٢- تقتسم الدولتان الإسلامية والبيزنطية خراج أرمينيا وقبرص وإيبريا. ٣- تسحب الإمبراطورية البيزنطية المردة من منطقة شمالي الشام إلى ما وراء جبال طوروس داخل آسيا الصغرى . ٤- تستمر المعاهدة مدة عشرة أعوام.

كانت من نتيجة انسحاب المردة من جبال لبنان، وشمالي الشام أن دمر ذلك السور النحاسي الذي كان يحمي آسيا الصغرى من غارات المسلمين، وسمح لهؤلاء تجديد غاراتهم على هذه المنطقة وتوطيد مركزهم في الأقاليم التي فتحوها حديثاً. فمادت غزوات الشواتي والصوائف، ونجم عنها فتح قيسارية في عام (٧١هـ/٦٩٠م)[١] .

وفي عام (٧٣هـ/٦٩٢م)كشف عبد الملك عن نواياه تجاه الإمبراطورية البيزنطية بعد ما فرغ من مشكلاته الداخلية، وعندما قام بضرب الدنانير الذهبية الإسلامية وأرسلها كجزيئة بدلاً من العملة البيزنطية. وقد حمل هذا التصرف معنى التحدي للإمبراطور من جهة، كما دل على أن الخليفة على وشك استئناف النشاط العسكري على الجبهة البيزنطية من جهة أخرى. وفعلاً، هاجم المسلمين في عام (٧٣هـ/٦٩٢م)آسيا الصغرى وحققوا انتصاراً في أرمينيا، في حين اقتصر رد بيزنطة على غزو مرعش في عام (٧٦هـ/٦٩٥م)، وهذا دليل على مدى الضعف الذي كانت تعانية الإمبراطورية البيزنطية آنذاك .

واذا كان حكم الإمبراطور **جستنيان الثاني** الضعيف انتهى بعزله في عام (٧٦هـ/٦٩٥م)، فلم يكن الأمر أفضل حالاً في ظل خلفه الإمبراطور ليونتيوس حيث استمرت الغارات الإسلامية على مناطق آسيا الصغرى والمناطق الحدودية. ففزا الوليد بن عبدالملك ملطية في عام (٧٧هـ/٦٩٦م) كما غزا عبيد الله بن عبد الملك قاليقلا عند منابع نهر الفرات. ومن حسن حظ الإمبراطورية البيزنطية أن الاندفاع الإسلامي باتجاه المناطق الحدودية، وفي عمق الأراضي البيزنطية قد تراجع اعتباراً من عام (٨١هـ/٧٠٠م) **بفعل عاملين:**

الأول: اجتياح مرض الطاعون بلاد الشام في عام(٧٨هـ/٦٩٧م). **والثاني:** قيام ثورة عبد الرحمن بن الأشعث في عام (٨٠هـ/٧٠٠م) والتي استمرت أربعة أعوام،وقد ذكرناها بالتفصيل في الصفحات السابقة من الأطلس .

استغل الإمبراطور البيزنطي طيباريوس الثالث هذه الأوضاع وكثف نشاطه العسكري وهزم المسلمين عند سميساط وفي منطقة قيليقية في عام (٨٤هـ/٧٠٢م) إلا أن عبد الملك، وقد فرغ من مشكلاته مع ابن الأشعث، وهاجم إقليم قيليقيا واصطدم بالقوات البيزنطية عند مدينة سيواس، وكانت بقيادة الإمبراطور نفسه، وانتصر عليها وبذلك تكون قد عادت سيطرة المسلمين مجدداً على منطقة أرمينيا. كما تم فتح المصيصة. وهكذا سرعان ما استعادت الدولة الإسلامية تفوقها الملحوظ على البيزنطيين بفعل قيادة عبد الملك الحكيمة[٢] .

---

١ - ٢ ، د. محمد سهيل طقّوش، تاريخ الدولة الأموية، ص ٩١ - ٩٤ .

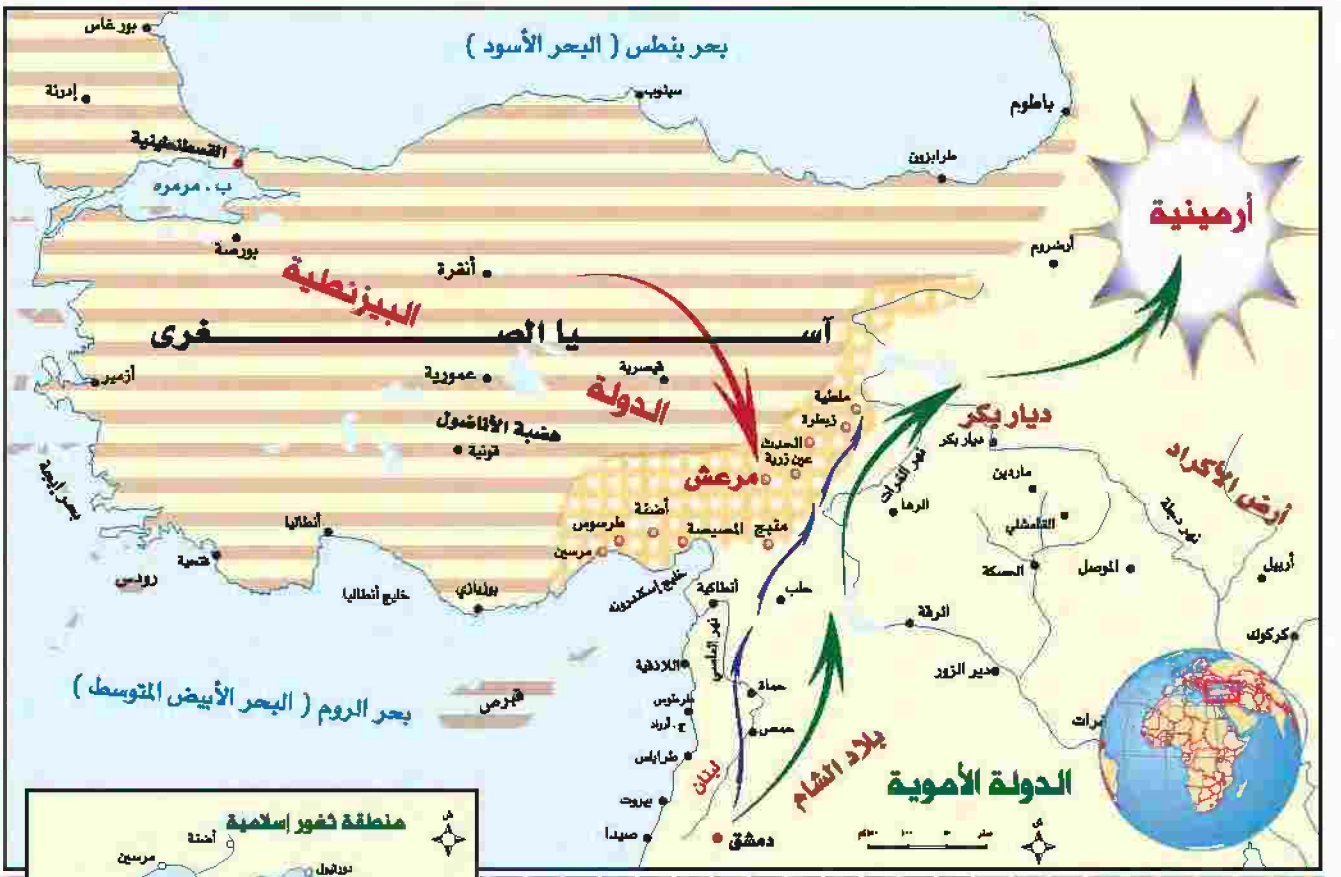

العلاقات الأموية البيزنطية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٢)

فتح قيسارية
سنة ١٨هـ

دينار من الذهب، من الوجه عليه صورة جستنيان الثاني، ومن الخلف صورة الصليب المدرج .

في عام (٧٣هـ/٦٩٢م) كشف عبد الملك عن نواياه تجاه الإمبراطورية البيزنطية بعد ما فرغ من مشكلاته الداخلية، حينما قام **بضرب الدنانير الذهبية الإسلامية** وأرسلها كجزية بدلاً من العملة البيزنطية المعروفة « انظر عملة جستنيان ».

فتوحات الشمال الإفريقي في عهد عبد الملك بن مروان

كانت الجبهة الإفريقية المحور الجدي لسياسة الفتوح في عهد عبد الملك بن مروان ،إذ خاض المسلمون عدة معارك لتصفية **القواعد البيزنطية** على الساحل الشمالي ، وإخضاع **البربر** لسلطة الدولة .

فبعد أن هدأت أوضاع الخلافة الأموية،نسبياً، وجد عبد الملك أمامه متسعاً من الوقت ليقوم بعمل ما في إفريقيا، خاصة وأنه خشي من انعكاس نتائج التحالف البيزنطي- البربري، وما يمكن أن يسببه من تهديد للحدود الغربية لدولته، فعهد إلى **زهير بن قيس البلوي** بقيادة العمليات العسكرية وأمره بالانتقام من **كسيلة**، واستعادة الأراضي التي أخلاها المسلمون بعد مقتل عقبة. وبتعيين زهير قائداً للجبهة الإفريقية، تبدأ **المرحلة الخامسة** من مراحل فتوح شمالي إفريقيا.

وفور تلقي كسيلة بن ملزم زعيم قبيلة أوربة البرنسية أنباء تقدم الجيش الإسلامي بقيادة زهير نحو القيروان ، اجتمع بأركان حربه ليعرض عليهم الوضع علماً بأن الجيش البربري كان عظيماً فقال كسيلة لقادته: " إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة، فإن بها قوماً من المسلمين لهم علينا عهود ونحن إن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا ، ولكن ننزل على موضع ممس « **ممش** » (جنوب شرقي جبال الأوراس في الجزائر الحالية) وهي على الماء، فإن عسكرنا خلق عظيم، فإن هزمناهم إلى **طرابلس** قطعنا آثارهم فيكون لنا الغرب إلى آخر الدهر، وإن هزمونا كان الجبل منا قريب فنتحصن به".

ولما علم زهير بخطة كسيلة وأنه اختار موقعاً حصيناً وبه ماء كثير، لذا لم يدخل القيروان وعسكر في ظاهرها ثلاثة أيام حتى استراح هو ومن معه من أفراد جيشه وذلك استعداداً للمعركة الحاسمة والتي يتوقف عليها مستقبل الإسلام في المغرب .

ودارت رحى معركة **ممس أو ممش** مابين المسلمين بقيادة زهير بن قيس البلوي وبين البربر والروم بزعامة كسيلة بن ملزم، واستحر القتل بين الجانبين ، ودارت الدائرة في نهاية المطاف على البربر وحلفائهم الروم وسقط **كسيلة قتيلاً** في المعركة، وطارد المسلمون فلول المنهزمين لتعود للإسلام هيبته في المغرب ، ويقضي على آمال الروم في العودة إلى المغرب تحت غطاء التحالف مع البربر، كما أن كسر شوكة البربر البرانس بقيادة كسيلة خاتمة لمقاومة هذه القبائل للجيوش الإسلامية الفاتحة . وقد علق السلاوي على موقعة ممس بقوله: " وفي هذه الواقعة ذل البربر وفتيت فرسانهم ورجالهم ،... واضمحل أمر الفرنجة ،... وخاف البربر من زهير والعرب خوفاً شديداً، فلجأوا إلى القلاع والحصون ، وكسرت شوكة أوربة من بينهم ، واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى وملكوا مدينة وليلي "[1].

---

١ – د. سلامة محمد الهرفي، دور قبيلة بلي في الفتوحات الإسلامية، موقع قبيلة بلي .

فتوحات قيس بن زهير البلوي على الشمال الإفريقي ٦٩ - ٧١ هـ

قمة جبل شنة بجبال الأوراس بالجزائر

بقايا آثار رومانية في مدينة تيمقاد الجزائرية القريبة من ممس على جبال الأوراس

١ قاعدة انطلاق الجيش الإسلامي بقيادة قيس بن زهير البلوي

٢ خط سير القائد قيس بن زهير البلوي إلى ملاقاة كسيلة وجيشه

✕ معركة ممس Battle of Mamma بين المسلمين والروم المتحالفين مع البربر، الزمان: عام ٦٩ هـ في خلافة عبد الملك بن مروان، المكان: جبال الأوراس بالجزائر، سبب المعركة: تحالف (كسيلة) وهو أحد قادة البربر مع الروم، هزم الروم والبربر هي هذه المعركة وكانت حاسمة إذ خمدت مقاومة البربر بعدها، وضعف أمل الروم في إفريقيا.

٣ بعد هذه الموقعة عاد زهير ظافراً إلى مدينة القيروان فأصلح من شأنها وشأن جامعها، ثم أرسل حملة استولت على بلد هام شمال القيروان يعرف بالكاف أو الكف ويسميه العرب شقبنارية وهو تحريف لاسمه الرومي sicca.vane-riē ولكن المصادر تؤكد لنا أنه أبى أن يقيم فيها، وأنه قال: إني قدمت للجهاد، وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك- ويعللون ذلك بقولهم بأن زهير كان من رؤساء العابدين وكبار الزاهدين .لذا تجده يعود مسرعاً إلى برقة حيث استشهد هناك.

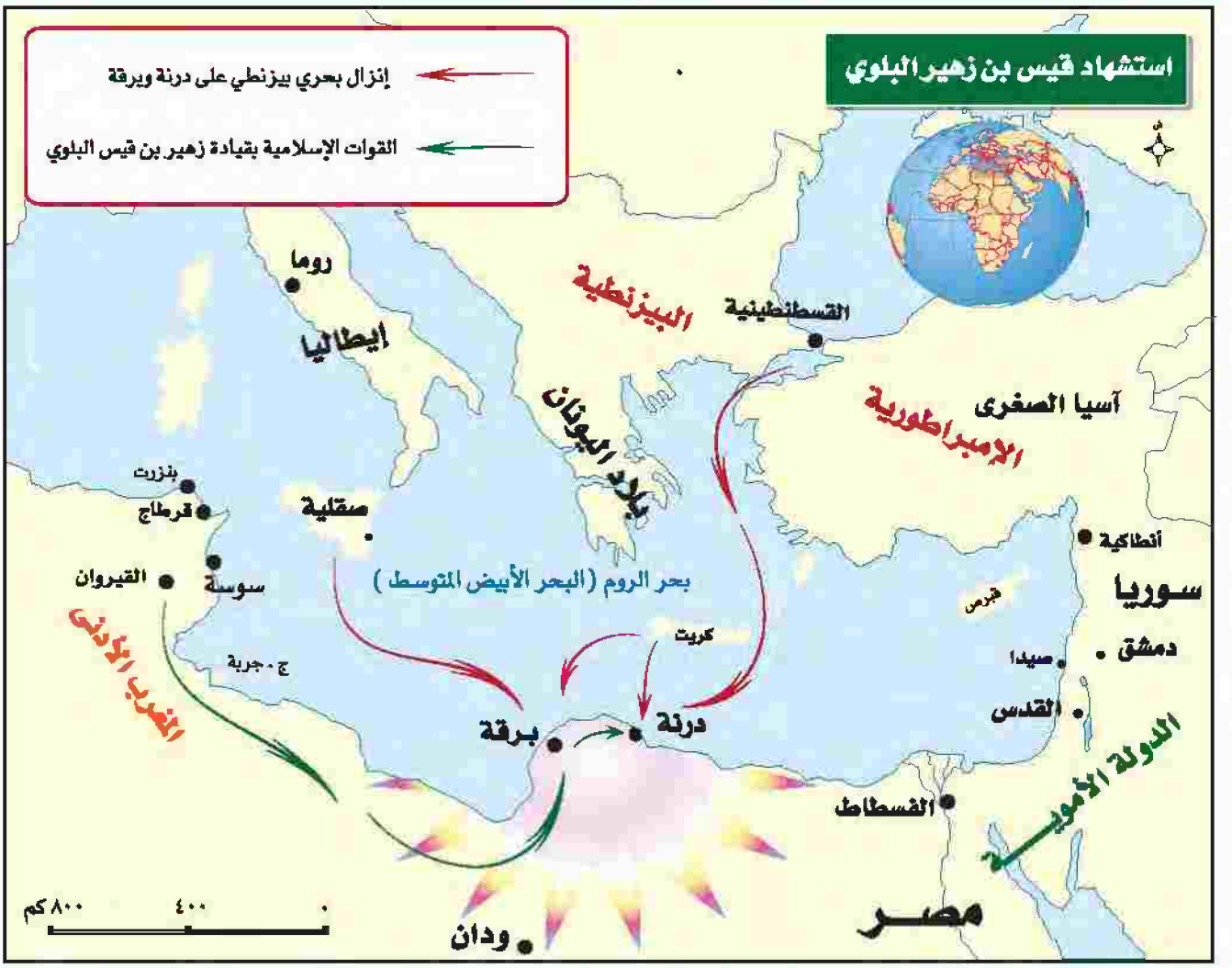

ما الذي جعل زهيراً البلوي يعود مسرعاً إلى برقة بعد انتصاره في موقعة ممس؟

إننا لانجد تفسيراً منطقياً لهذه العودة السريعة سوى أن معلومات خطيرة وصلت إليه تحتم عليه الإسراع بالعودة ، وهذا ما حدث بالفعل إذ وصلت إليه أنباء مؤكدة بأن الروم البيزنطيين يقومون بعمليات إنزال لقواتهم في **برقة** ليستعيدوها، ويقطعوا على القوات الإسلامية بهذا طريق العودة ، وقد تحصن الروم في درنه وأخذوا ينقلون إلى سفنهم الأسلاب التي حصلوا عليها في إفريقية وكذالك الأسرى الذين أخذوا من المسلمين .

لقد وصل زهير قرية **درنة** ، وكان قد أعطى أوامره لجيشه بأن يسيروا في وحدات صغيرة من أجل سرعة الحركة، لقد كان زهير في طليعة الجيش الإسلامي المتجه إلى برقة مع سبعين من أصحابه، فرأوا الروم يدخلون أسرى المسلمين في المراكب وسط صراخ النساء والأطفال ، فأراد زهير أن ينتظر حتى تتكامل قواته، ولكن هول الموقف ورؤية حرائر المسلمين سبايا بأيدي الروم أثار حفيظة مع من زهير فدعوه للقتال، فقال نتنظر حتى يتكامل الجيش لأن قوة العدو كبيرة، فقال له أحد الجند : بل جبنت يا زهير ، فمست هذه الكلمة كبرياءه الجهادية فرد عليه بل قتلتني وقتلت نفسك، **فدخل زهير مع الروم في معركة غير متكافئة كانت نتيجتها معروفة** كما قال زهير للجندي ، فاستشهدوا عن بكرة أبيهم وكان ذلك في عام ٧١هـ / ٦٩٠م ، ودفن في درنة قريباً من الشاطىء الذي استشهد فيه وتسمى تلك المنطقة (قبور الشهداء).

أجل إن التاريخ يذكر لزهير بن قيس البلوي سجله الجهادي الطويل الذي توج باستعادة القيروان وتحريرها من يد كسيلة بن ملزم، وأنه ثأر لعقبة بن نافع وصحبه من كسيلة الذي قتل هو وعدد ضخم من فرسانه على يد زهير بن قيس البلوي في موقعة ممس أو ممش (٦٩هـ /٦٨٨م). د. سلامة محمد الهرفي، دور قبيلة بلي في الفتوحات الإسلامية، موقع قبيلة بلي .

مسجد الصحابة بدرنة الليبية؛ نسبة لمجموعة كبيرة من شهداء الفتح الإسلامي للمغرب وعلى رأسهم زهير بن قيس البلوي

حملة حسان بن النعمان الغساني[١]

في عام (٧٤هـ/٦٩٣م)، وجد عبد الملك نفسه قوياً إلى الحد الذي يمكنه من استئناف سياسة الفتوح في شمالي إفريقيا، خاصة بعد أن تجاوزت الخلافة محنتها في الداخل المتمثلة بالقضاء على ابن الزبير، وجاء اختيار **حسان بن النعمان الغساني** قائداً جديداً، مؤشراً على ذلك. وبتعيين هذا القائد تبدأ **المرحلة السادسة** من مراحل فتوح شمالي إفريقيا.

كانت فاتحة أعمال حسان فتحه **لقرطاجنة**، سنة ٧٦ هـ، أقوى القواعد العسكرية البيزنطية. وحتى يحول دون عودة البيزنطيين إليها، فقد دمر ميناءها. وقد دعم هذا الفتح الموقف الإسلامي، فقام المسلمون بعمليات سريعة استهدفت المدن الساحلية ففتحوها باستثناء جيوب قليلة منها **سبتة** التي ظلت الحصن القوي للبيزنطيين.

وقد دعم هذا النصر الموقف العسكري الإسلامي في المغرب. ووقع في غضون ذلك تبدل مذهل في موقف البربر، إذ انفرجت قبائل الأوراس بقيادة امرأة غامضة عرفت في المصادر العربية باسم **الكاهنة** وهي تتحدر من قبيلة جراوة الزناتية البترية، وقد دانت على ما يبدو، بالعقيدة اليهودية.

ونجحت الكاهنة في تحقيق التفاف واسع حول ثورتها من البربر الأوراس ومن بقايا البيزنطيين وهذا ما يفسر احتلالها لمدينة **باغية** الساحلية آخر المعاقل المهمة التي احتفظ بها البيزنطيون، ثم راحت تتحدى المسلمين. ولم يستطع حسان الذي سارع إلى اعتراض تقدمها في **وادي مسكيانة**، من الوقوف في وجه الحشود الضخمة التي تكتلت وراءها حيث لاقى المسلمون العناء والبلاء حتى إنهم سموا يوم المعركة **(يوم البلاء)**، ومما يدل على جسامة الهزيمة أن حساناً اضطر، تحت ضغط الأحداث العسكرية، إلى التراجع عائداً إلى **برقة** في ثالث عملية انسحاب للقوات الإسلامية منذ معركة تهودة.

ونفذت الكاهنة في غضون ذلك إستراتيجية جديدة في مواجهة المسلمين قائمة على التدمير كسلاح خاص ضد استقرارهم. وقضى البربر زهاء خمسة أعوام يعملون في تدمير الأرض وتخريبها وحرق الزرع والضرع. وقد أدت هذه السياسة إلى انفضاض بعض البربر، والبيزنطيين عنها خاصة أهل المدن وكبار الملاكين والفلاحين، مما كان له أثر في وضع حد لنهايتها.

أما حسان فقد بقي في برقة طيلة هذه المدة مترقباً وصول الإمدادات إليه من العاصمة دمشق ليثأر لهزيمته، وفي الوقت نفسه كان يترصد أخبار الكاهنة. ولما علم بتضعضع مكانتها استأنف حركة الجهاد. وقد اقترنت عودته، هذه المرة، بتغيير في موازين القوى والتحالفات السياسية، إذ استقبله السكان البيزنطيون والبربر مستغيثين به من الكاهنة، وقدموا له الأموال والطاعة. واسترد بعض القلاع مثل **قابس، وقفصة، وقسطيلية، ودخل المغرب الأوسط**.

---

١ - د. محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الأموية، ص ٩٥ - ٩٦.

فتوحات حسان بن النعمان الغساني على الشمال الإفريقي المرحلة الأولى

إفريقيا

على إثر معركة (يوم البلاء)، وجسامة الهزيمة على المسلمين أن حساناً اضطر، تحت ضغط الأحداث العسكرية، إلى التراجع عائداً إلى برقة حيث استقر حوالي خمس سنوات في مكان قصور حسان بعد أن استبدت خلالها الكاهنة بالمناطق الإفريقية الشمالية الداخلية.

بعث عبد الملك حسان بن النعمان سنة ٧٦هـ، ٦٩٥م، للشمال الإفريقي لكفاءته، فزحف إليها على رأس أربعين ألف مجاهد. خاض معارك حتى تم له فتح قرطاج. مقر حامية الروم. ودمرها، ثم تابع تقدمه، فدمر حاميات الروم المدافعة عن صطفورة وبنزرت وبجاية. ومضى لمحاربة البربر الذين كانت تقودهم الكاهنة (دهنا أو دهيانت ينفاق) من قاعدتها في جبل الأوراس، وحشدت الكاهنة جيشاً كبيراً للقائه، ودارت معركة طاحنة انتصرت فيها الكاهنة، وأسرت ثمانين من أفضل رجال حسان. وأمده عبد الملك بقوات إضافية، فتمكن من الحصول على معلومات عسكرية عن عدوه، فالتقى بالكاهنة، ودارت رحى معركة رهيبة انتهت بمقتل الكاهنة، في موضع حَمّل اسم بئر الكاهنة. تابع حسان تقدمه حتى أخضع إفريقية. وأقام بالقيروان واهتم ببناء المجتمع الجديد؛ فعمل على نشر الإسلام. وأقبل البربر على الإسلام لحسن سياسته. واهتم بالحركة العمرانية، فطوّر بناء تونس، وجدد بناء مسجدها سنة ٨٤ هـ، ٧٠٣م، ودوّن الدواوين وولى الولاة وأقام قاعدة بحرية لبناء السفن ونظّم البحرية ليمنع الروم من معاودة الاتصال بإفريقية. ثم عاد إلى الشام ومعه ٣٥ ألف فارس. واعتزل الأعمال الإدارية في أول عهد الوليد بن عبد الملك. وتوجه إلى أرض الروم غازياً، فتوفي بها.

فتوحات حسان بن النعمان الغساني على الشمال الإفريقي المرحلة الثانية

٢ خلال هذا الانتظار قامت الكاهنة، ظناً منها أن المسلمين، إنما قدموا من أجل الأموال والغنائم، بتخريب المدن، وقطع الزرع، و الشجر، وتطبيق سياسة إحراق الأراضي فكان هذا العمل التخريبي قد زاد من سخط البرابرة عليها وعلى تصرفاتها الحمقاء، وغاب عن ذهنها أن الفتح الإسلامي إنما جاء استجابة للباعث الإيماني بهدف نشر الدعوة الإسلامية وعمل الكاهنة لا تأثير له على هذا الباعث « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ».

٣ لقد باتت كل الأسباب مهيأة للمسلمين لتحقيق الانتصار على الكاهنة بعد وصول المدد من الشام عام ٨١هـ (٧٠٠م). فرحب البرابرة بالفاتحين بعدما ذاقوا كل أنواع الظلم الذي مارسته الكاهنة ضدهم وكذا الروم من قبلهم. وجد حسان في مطاردة الكاهنة التي تخلى عنها أكثر قومها حيث استطاع أن يقضي عليها ومن بقي معها في جبل الأوراس في موضع عرف فيما بعد ببئر الكاهنة. وكان مقتلها عام ٨٢هـ (٧٠١م) وبعد ذلك استطاع حسان أن يسترد بعض القلاع، مثل: قابس، وقفصة، وقسطيلية، ودخل المغرب الأوسط.

٤ دارت معركة قوية انتصر فيها المسلمون على جيش الكاهنة وقطع رأسها فوق بئر لا يزال يعرف ببئر الكاهنة، وفرت فلول الجيش منهزمة.

قام حسان بن النعمان بمكاتبة الخليفة عبد الملك بن مروان بما حصل؟ فرد عليه بأن ينتظر في الشمال الإفريقي حتى تصل تعليمات أخرى جديدة، حيث استقر حوالي خمس سنوات في مكان قصور حسان استبدت خلالها الكاهنة بالمناطق الإفريقية الشمالية الداخلية.

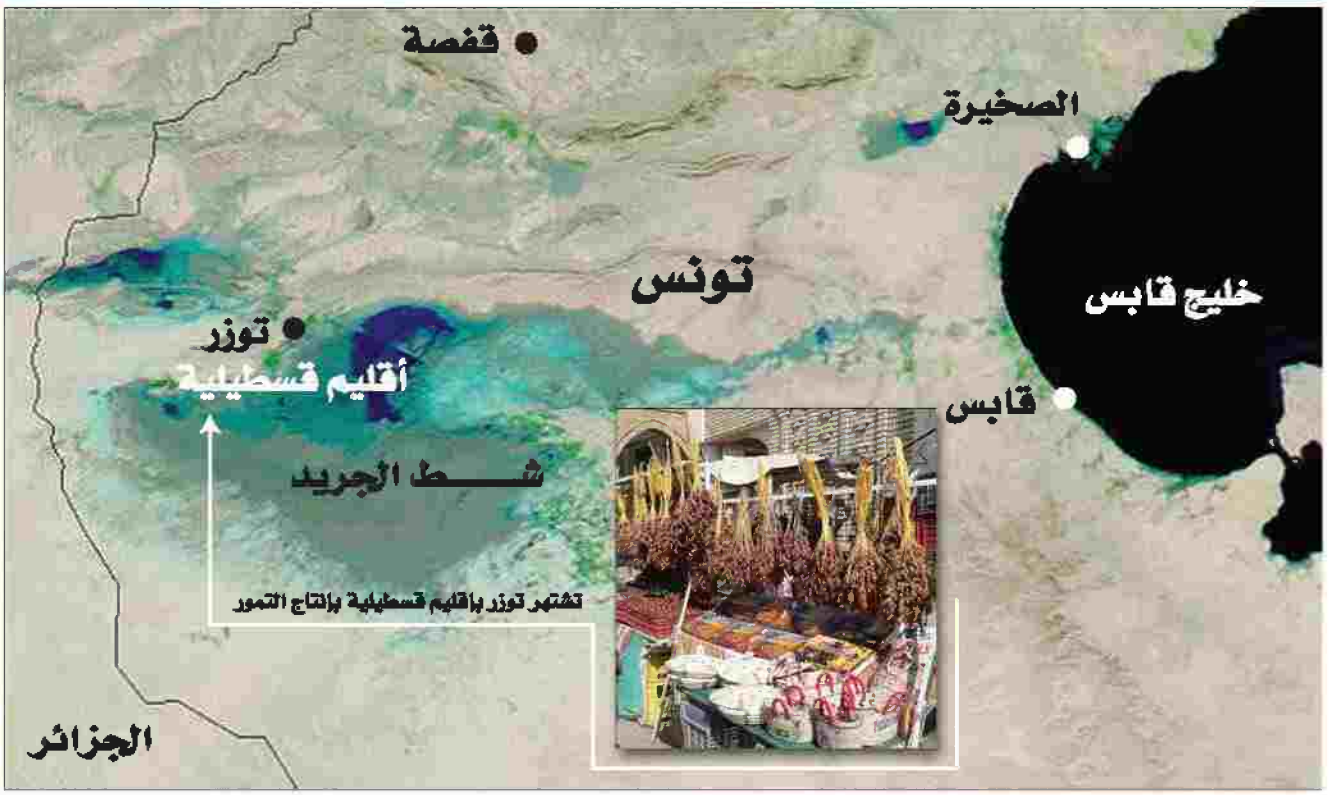

وادي مسكيانة - شرق الجزائر

مدخل مدينة مسكيانة - شرق الجزائر

حسان بن النعمان وبناء مدينة تونس وجامع الزيتونة

ارتبط تاريخ جامع الزيتونة بمدينة تونس ارتباطاً عضوياً، وهو ثاني جوامع المغرب الإسلامي. فبعد مدينة القيران وجامعها الذي أسسه عقبة بن نافع سنة ٥٠ للهجرة، أتى دور مدينة تونس سنة ٧٩ هـ/ ٦٩٨ م.

فبسقوط قرطاجة التاريخية، ظهرت للوجود بالقرب منها مدينة جديدة كتب لها أن تخلف جارتها نهائياً، وأن تصبح عاصمة للبلاد التونسية. وكان اختيار حسّان بن النعمان لموقعها ناتجاً عن عوامل استراتيجية مرتبطة بالحضور البيزنطي في مياه البحر الأبيض المتوسط، خاصّة وأن أطماعهم في منطقة دحروا عنها منذ عهد قريب ما زالت متأججة.

وبالرغم من أن المصادر التي سبقت الفترة الإسلامية تذكر أن **تونس** كانت قرية بربرية ليس لها أهمية تذكر لوجود قرطاج بالقرب منها، فإن الحفريات أثبتت عكس ذلك.

ومع الفتح الإسلامي، تغيرت المعطيات، وأصبح من الضروري أن يكون خط المواجهة من الداخل، خاصة وأن البحرية لم تكن تضاهي آنذاك الأسطول البيزنطي.

هكذا إذن أسّس **حسان بن النعمان** تونس بين سنتي ٧٩ هـ/ ٦٩٨ م و٨٤ هـ/ ٧٠٤ م، فاختطّ هذا القائد الفاتح المدينة الجديدة، بطريقة ذكية. إذ جعل فيها إضافة إلى الصناعة، مسجداً ذكره البكري، إلا أنه لا يفيدنا إن كان هو الجامع الأعظم الحالي. ويؤكد ابن الشباط والرقيق القيرواني أن عبيد الله بن الحبحاب هو المؤسس للجامع سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م. أما ابن عذاري، فيذهب إلى أن تاريخ التأسيس يعود إلى سنة ١١٦ هـ/ ٧٣٤ م. **لكن هل يمكن الاعتقاد أن المسلمين بقوا طوال ثلاثين سنة من غير جامع يؤمّونه ويصلون فيه؟** وهكذا من الممكن تصور أن عبيد الله بن الحبحاب قام بتوسيع الجامع وإضافة بعض الزيادات فيه، لكن من الراجح أن حسان بن النعمان لم يبن جامعاً؛ بل استعمل معلماً قديماً وجعل منه مسجده.

إذ أن بعض العناصر المعمارية تجعلنا نفترض أن جامع الزيتونة ببعض مكوناته الحالية يرجع إلى الفترات التي سبقت دخول المسلمين الفاتحين، وهذا اعتماداً على بعض النقاط، خاصة منها:

١) أولاً وبالذات نلاحظ أن لأقسام من الجدران السميكة التي تحيط بالجامع من الخارج نمطاً يختلف تماماً عما عهدناه في العمارة الإسلامية بصفة عامة لا في مدينة تونس فقط، بل في البلاد التونسية وما جاورها. فتتكون هذه الأقسام من حجارة ضخمة استعملت في المعالم الراجعة للفترة الرومانية ثم البيزنطية،

لكـن يمكـن الافتراض أن حسانـاً أو ابن الحبحـاب أعاد استعمال حجـارة كانت موجودة فـي بعض المعالم الرومانيـة أو البيزنطية؟ وهذا النمط من العمارة نفسه نلاحظه في جامع القصر: فقبل أن يستغل البناؤون هـذا المعلـم ليصبح جامعـاً، أمكن التأكد من أنه كان معلمـاً دفاعياً يرجع حسب ما توصلنـا إليه إلى الفترة البيزنطية، إذ رمم المعهد القومي للآثار والفنون هذا الجامع في بداية الثمانينيّات ولا حظنا آنذاك ضخامة سمك جدار القبلة الذي يبلغ ٢،٢٠ م. لذلك أجري سبر أول أمام المحراب، مما أثبت أنه محفور مباشرة في جـدار القبلـة، مما دفع لمواصلـة فتح أسبار أخـرى (عددها سبعة) فـي كامل أنحاء المعلـم. ووضحت هذه الأسبـار عـن طريق اللّقـى الأثرية وكذلـك عن طريق وجود جـدران ما زالـت قائمة الذات وبعض الأسس والأرضيـات، إلـخ. أن المعلم يرجع إلى الفـترات السابقة لدخول المسلمين الفاتحـين، وتيقّنا من أن البنائيين استغنوا عن السقف الأصلي للمعلم، وعن عقوده التي عثرنا على أقسام منها تحت سطح الأرض. وبعد إعادة بنـاء السقف، بقيت الجدران على حالها بمكوناتها وبسمكهـا الذي كانت عليه خلال الفترة البيزنطية، وهي مشابهـة فـي نمطها وفي ضخامتها لبعض الأقسام التي ذكرناها بعـد بالجامع الأعظم. وهكذا تكاد تستقل الجدران الخارجية عن بقية عناصر المعلم، وهي تبدو للناظر كأنها « أسوار قلعة »[١].

٢) يبعـث تصميـم بيت الصـلاة نفسه على الاستغـراب. فالبلاطات تأخـذ اتجاهاً منحرفـاً بالنسبة إلى الجدارين الشرقي والغربي اللذين يحددان هذه البلاطات. فلو بني بيت الصلاة خلال الفترة المتراوحة بين ٢٤٨ هـ/ ٨٦٣ م و٢٥٠ هـ/ ٨٦٤ م، لاختـير تصميم مخالـف يجعل من البلاطات والمسكبـات تأخذ اتجاهاً موازيـاً للجدارين الخارجيين، وهو ما يجعلنا نرجـح أن هذه الجدران كانت موجودة قبل اتخاذ المعلم جامعاً لمدينـة تونـس، وأن المسكبات والبلاطات أضيفـت خلال الأعمال الأغلبية بالجامع، وهـي المنسوبة للمستعين بالله العباسي والراجعة لسنة ٢٥٠ هـ/ ٨٦٤ م والتي أخذ خلالها الجامع شكله ومساحته الحاليين[٢].

وهكذا تبدو العناصر الداخلية الموجودة بقاعة الصلاة كأنها محشورة حشراً داخل الجدران الخارجية؛ كمـا أن انحـراف اتجاه القبلة يعتبر انحرافاً هامـاً بالنسبة إلى بقية الجوامع الأخـرى، وربما يمكن تفسيره بوجـود جدار القبلة قبل تأسيس الجامع؟ ومن الأكيد أن الأغالبة عند إعادتهم بناء الجامع لم يحاولوا تغيير اتجـاه القبلـة بالرغـم من علمهم بانحرافـه الهام عن الاتجاه الصحيـح، إذ أن إدخالهـم أي تغيير كان من الممكن أن ينتج عنه تحويرات هامة في طبيعة البناء.

١، ٢ – محمد الباجي بن مامي، جامع الزيتونة، أهمّ معالم مدينة تونس الأثرية والتاريخية.

إضافة إلى هذا، فقد وصلتنا العديد من الروايات والأساطير - التي لا تتفق مع العقيدة الإسلامية - حول تأسيس الجامع وإقامته في هذا المكان، من بينها خاصة تلك الرواية التي وردت في "المؤنس" لابن أبي دينار والتي تخص الراهب ترشيش الذي كان مقيماً في المكان الذي أقيمت عليه الزيتونة، وهو الذي دلّ المسلمين الفاتحين ليقيموا عليه جامعهم بعد أن حماه قبل وصولهم من أيّ تدنيس، هذا إضافة إلى اكتشافات المعهد الوطني للتراث بإشراف الأستاذ حامد العجابي التي تعود إلى سنة ١٩٧٢، والتي حصلت في القسم الشرقي للجامع، حيث عثر على مقبرة مسيحية ترجع إلى القرن الرابع الميلادي. كما يؤكد عالم الآثار الفرنسي كوكلر (P. Gauckler) أنه شاهد بقايا كنيسة رومانية توجد تحت مكان المئذنة الحالية. وقد توصل إلى ذلك عندما حصل تهديم صومعة الجامع الراجعة للفترة المرادية. وقد تم ذلك خلال سنة ١٣١٢ هـ/ ١٨٩٤ م، وهي ربما أدلة على ارتباط هذا الجامع بأحد البناءات القديمة التي نرجح أنها كانت مبنى دفاعياً، إذ أن الجامع مرتفع وكان مطلاً على البحر من قسمه الشرقي، فيؤكد أبو عبيد الله البكري في مؤلفه "المسالك والممالك" أن الجالس داخل الجامع كان بإمكانه مشاهدة السفن بالبحر. لهذا كان الجدار الشرقي للجامع أهم النقاط التي يمكن عن طريقها مراقبة حركات أساطيل الأعداء، ويمكن الافتراض أن حسانا بن النعمان نفسه هو الذي بنى برجي المراقبة الموجودين حالياً بكل من الزاويتين: الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية. كما يذكّر قسم من الجدار الشرقي بجدران الحصون والأربطة بصفة عامة؛ فحجارته السميكة تؤكد هذا الدور الدفاعي، وربما يمكن تفسير استغناء الجامع عن المئذنة حتى نهاية العهد الحفصي بوجود هذين البرجين اللذين كان يتم الأذان انطلاقاً منهما. وهكذا، فإنه يمكن اعتبار الزيتونة معلماً محصّناً ومدعماً ببرجي المراقبة، مما يدل على أن الجامع كان يحمي المدينة من هجمات الأعداء، ويضم المصلين والمدافعين على حد سواء [١].

لذلك من الراجح أن حساناً لم يبن جامعاً، بل استعمل معلماً قديماً، وجعل منه مسجده، مثلما حصل في بعض الجوامع الأخرى كجامع دمشق وجامع قرطبة. وهكذا من الممكن أنه استغل معلماً دفاعياً أو كنيسة، ولم يشيد جامعاً، وأن بن الحبحاب وسّع بيت الصلاة؟[٢].

١، ٢ - محمد الباجي بن مامي، جامع الزيتونة، أهمّ معالم مدينة تونس الأثرية والتاريخية .

حي باب البحـــر في قلب العاصمة التونسية

أحد أزقة تونس العتيقة (المدينة العربية)

تذكر المصادر التاريخية أن لتونس خلال العصور الإسلامية الأولى خمسة أبواب وهي: باب الجزيرة (جنوباً) وباب الصقالين (شمالاً) وباب أرطة (غرباً) وباب البحر (شرقاً) وباب قرطاجنة (شمالاً شرقياً) كما تذكر المصادر أن الخليفة عبد الملك بن مروان أمر القائد حسان بن النعمان بتشييد الجامع ودار الصناعة بتونس.

وكتب الخليفة إلى أخيه عبد العزيز والي مصر ليوجه «ألف قبطي بأهله وولده» لصنع المراكب؛ وسخّر البربر لجلب الخشب. ثم وقع تشييد ميناء شرقي دار الصناعة وميناء آخر على ساحل البحر (حلق الوادي) ثم حفر قناة لجلب مياه البحر إلى البحيرة. هكذا يتبين أن حي باب البحر عرف منذ الفتح الإسلامي أضخم مشروع عمراني بقي بارزاً إلى أواسط القرن ١٦م، وهو «دار الصناعة» أي مركباً لصناعة السفن ويحتاج هذا الإنجاز إلى مساحة شاسعة تطل على البحر، ومخازن للخشب ولحاجيات السفن، كما تستخدم «دار الصناعة» عدداً هاماً من اليد العاملة المختصة (أقباط).

العاصمة (تونس) وهي تطل بإطلالتها الجريئة على البحر